حصى الشاطئ

ابتسام يوسف الطاهر

الكتاب : حصى الشاطئ (رواية)

المؤلف : ابتسام يوسف الطاهر

الطبعة الأولى : القاهرة ٢٠٢٢

رقم الإيداع : ١٧٥٣٩ / ٢٠٢٢

الترقيم الدولي : I.S.B.N : 978 - 977 - 493 - 651 - 7

الناشر

شمس للنشر و الإعلام

ت فاكس : ٠١٢٨٨٨٩٠٠٦٥ (٠٢)

www.shams-group.net

لوحة الغلاف للفنانة : ابتسام كاظم الخليفة

حقوق الطبع والنشر محفوظة

لا يسمح بطبع أو نسخ أو تصوير أو تسجيل

أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة كانت

إلا بعد الحصول على موافقة كتابية من الناشر

شمس
للنشر والإعلام

حصى الشاطئ

رواية

ابتسام يوسف الطاهر

إهـداء

إلى أهم منجز في حياتي...

أبنائي :

سوما (ابتسام) ويوسف

كانت تنظر للأرض ساهمةً كأنها ناسك بوذي في صحراء، يتأمل حشرة يخاف أن يتحرك لئلا يدعسها. انتظرتُ طويلاً أن تتطلع لي، أن تشعر بوجودي، ولكن بلا جدوى.

وقفتُ بقربها فإذا بها تعاودها تلك الارتعاشة لجسدها الناحل. وادلهمت غيوم الخوف حين شعرتْ بوجودي الفعلي وأنا اقترب منها. مع ذلك لم يكن أمامي سوى أن أعيد تلك الأسئلة ذاتها:

- ما الدافع لذلك... ما الذي دفعك ومَن؟... ما السبب الذي جعلك ترتكبين تلك الجريمة؟ نعم إنها جريمة وعقوبتها الإعدام أو المؤبد، إذا لم تتكلمي!... فما الذي دفعك أو أجبرك على القيام بذلك؟

حين واصلتْ السكوت مددتُ يدي بكأس ماء لتهدئتها...

- خذي كأس الماء واهدأي، لن يمسَّك أحدٌ بسوء، ولكن لابد أن تحدثيني.

قلتُ الجملة الأخيرة بعصبية وانفعال بعد ما نفذ صبري، ونفذت كل المحاولات لاستنطاقها...

لازمتها حالة من العناد أو الشرود وكأن الأسئلة تُوجه لإنسان آخر، أو كأنها تُسأل بلغة أخرى لا تفهمها. ربما هو الخوف مما حصل قد أخرسها.

مازالت تلك الارتعاشة تجتاح جسدها الناحل. ثلاثة أيام وهي لم تذق شيئًا غير قطرات الماء تبلِّل بهما شفتيها اللتين بان عليهما اليباس والذبول.

عيناها تتطلعان للاشيء ببريق مَن هو على وشك البكاء فلاحظتُ تلألأ دموعها في العينين دون أنسكابها! فهل العطش جفَّف منابعهما، أم هي الصدمة؟.

هل أصفعها على وجهها الشاحب لأوقظها؟... لابد أنهم فعلوا الواجب معها! بل قد تكون ذاهلة بسبب صفعاتهم! من يدري، ولو انهم أكَّدوا لي بأن لم يمسَّها أحدٌ بسوء. لقد سألتها عن ذلك لكنها لم تنطق بجواب حتى على هكذا سؤال.

عشرات الاحتمالات مرَّت بذهني. قلتُ لتمر الأيام الأولى حتى تهدأ. لكن لم أعد قادرًا على احتمال صمتها ذاك، لابد أن تدافع عن نفسها فلا يبدو عليها هواية القتل، لابد أن يكون هناك سبب كبير وراء عملها ذاك.

إلى الآن الكل يؤكد طيبة وشهامة القتيل، حتى زملائها لم يُظهر أي منهم تعاطفًا معها، أو على الأقل تبريرًا ما أو احتمالاً. الكل بدا مذهولاً من تلك الفعلة ولم يتوقعها في أقصى أحلامه كابوسية.

بل البعض يؤكد على عطف الضحية عليها واحترامه لها، لكنها كما قال أحدهم:

- سمعتها أكثر من مرة تنتقده وتتذمر بغضب من بعض أفكاره وتتهمه بالتناقض والتلاعب بمشاعر البسطاء.

قاطعته إحدى زميلاته:

- لكن الكثير منا ينتقد آراءه ويعترض عليها، وهو كان يتجاوب مع

أفكارنا أحيانا، بل حتى معها هي... ومهما يكن من الأمر لا يعني أن نقتل كل من نختلف معه...

ثم راحت تبكي بحُرقة:

- كانت غريبة الأطوار، لا تختلط معنا، دائمًا غارقة في عالمها حتى لو حكينا نكتة لا تضحك مثلنا بل تكتفي بابتسامة متعالية، أو بالأحرى غبية... كنتُ أعرف أنها مجنونة غير سوية أو ربما شريرة.

كانت تلك سعاد إحدى زميلاتها التي لاحظتُ حماستها وانفعالها أكثر من الأُخريات. كانت جذَّابة، سحنتها سمراء وشعرها المصبوغ بلون أشقر كان جميلاً، لم أتوقعه يلائم السمراوات، فقد منحها جاذبية، سيطرتْ على نظراتي التي سحبتُها عنها بصعوبة!

أيَّدتها زميلتها التي كانت تقف مقطبة قرب الباب:

- بلى، كانت شريرة، ليست مجنونة أبدًا، فلديها أفكار أكبر منها، لكنها شريرة وحسودة. ربما تحسده على نجاحه أو الثروة التي لديه، من يدري!

فعقَّب عليها زميلها:

- أو ربما لأنه كان متواضعًا معها ولا يعاملها بتعالي، فبعض البشر لشعورهم بالدونية يحتقرون من يعاملهم بلُطف وإنسانية.

- يا جماعة، هذه مبالغة لا مبرر لها، لابد من وجود سبب آخر. فمهما يكن فهي إنسانة رقيقة لا يمكن أن تفكِّر بالقتل إلا إذا كان هناك سببٌ قوي أقوى منها.

قاطعهم موظف كان صامتًا كل الوقت، وجهه يشبه أبطال السينما زمان، ملامحه حادة وقوية وطوله فارع ومستقيم:

- كلنا لدينا إحساس بالحسد والغيرة إزاء البعض، لكن هذا لا يعني أن نفكِّر بالإساءة لدرجة القتل، وعلى كل حال هو لم يكن ملاكًا، وكأي إنسان لابد أن يكون له أخطاء... من يدري!

سألتُ موظف الحسابات:

- ماذا تقصد؟ هل من الممكن أن يكون تحرَّش بها أو اعتدى عليها مثلاً؟

- لا... لا... أبدًا لم أقصد ذلك، هناك زميلات أجمل منها وأكثر جاذبية وقُربًا منه، لكن لم نسمع عن أي علاقة له مع أي منهن... فهو إنسان سويّ من هذه الناحية، ولا أظن أنه يفكِّر بأمر كهذا. أجاب نافيًا وكأنه ندِمَ على ما قال.

لم أخرج بنتيجة أو أي احتمال من لقائي معهم. فقررتُ أن أقابلهم كلاً على حدة، لعلّي أصل إلى حل ذلك اللغز أو لفتح نوافذ ولو صغيرة لتدلني على الحقيقة.

المشكلة أن الكل ضدها! لم أجد واحدًا متعاطفًا معها... أهو الخوف؟ أو أن الأمر يتعلق بالوظيفة والعمل لا يريد أحدهم التفريط بها من أجل زميلة غريبة الأطوار وتفتقد للشعبية وغير اجتماعية.

• • • •

في الزيارة التالية أخذتُ حِساءً جاهزًا لي ولها، فقد يكون الجوع أثَّر على قدرتها في الكلام. لابد أن تأكل لتستعيد بعضًا من قِواها.

لم أطرح عليها أيًّا من الأسئلة التي مللتُ إعادتها دون جدوى... ابتسمتُ لأُطمئنها وأشجِّعها على شُرب الحساء قبل أن يبرد لعله يخفف من ارتعاشها.

خطر لي اعتقاد، ربما هي ترفض الأكل ليس إضرابًا عن الطعام، بل لإعتقادها أنها ستموت جوعًا قبل الحكم عليها. فهمستُ لها:

- لن تموتي من الجوع أبدًا، فالأفضل أن تواجهي كل شيء وأنتِ قوية، وثقي بي، سأحاول أن أبذل ما بوسعي لمساعدتك وتخفيف الحكم الذي سيصدر ضدكِ.

- لا أخاف الموت... المهم أن يأتي سريعًا.

همستْ بحشرجة واهنة.

فرحتُ وأنا أسمعها تتكلم:

- حسنًا، اشربي الحساء الآن وسنفكِّر بطريقة سريعة للموت.

دُهشتُ للبريق الذي أضاء عينيها وهي تتساءل:

- أحقًا؟... تعدني؟

هززتُ رأسي:

- بلى، أعدك.

وأنا محتار في أمرها، هل تقصد وعدها بالموت السريع، أم بالبراءة أو تخفيف الحكم؟

أخيرًا تناولتْ الحساء، فانزاحت بعض من غيوم الشحوب عن وجنتيها اللتين اكتستا حُمرة خفيفة، مما أضفى عليها شيئًا من الجمال. ابتسمتُ مُشجعًا ولمستُ كفها التي لفتت انتباهي إلى رقة أصابعها الطويلة. انتابني شعور بالحزن عليها، كانت كفها باردة. طلبتُ من الشرطي أن يأخذها لعلها تنام، فاستسلمتْ ليد الشرطي كما لو كانت تسير بنومها دون أن تلتفت لي.

خطرتْ لي فكرة قبل أن أترك المكان، فأسرعتُ لمدير المعتقل اقترحت عليه أن آخذها معي بكفالة لحين المحكمة، لعلها تحكي لي بعيدًا عن هذا المكان.

لم يوافق في البداية وحاول أن يتجاهل طلبي، لكنه أمام إصراري اتصل ببعض المسئولين فظهرتْ معالم رضا مصحوب بتردد، ولم يقتنع إلا بعدما أكَّدتُ له أن المدعي العام هو من كلَّفني بهذه المهمة. فأعطاني مجموعة استمارات ملأتُها ووقَّعتُها، ووعدني أن يحصل على الموافقة بأسرع وقت ممكن، على أن آخذها لبضعة أيام فقط وأكون مسؤولاً عن سلامتها.

بالرغم من ثقتي أنها لن تهرب فهي من سلَّمتْ نفسها، لكني خفتُ أن تقضي الأيام دون أن تنبس بكلمة، وخفتُ من احتمال آخر وأنا أستعيد جُملتها كصدى: «أنا لا أخاف الموت... المهم أن يأتي سريعًا».

• • • •

حاولتُ أن أستغل الأيام لحين حصول الموافقة لأتمَّ بعض الأوراق والمعاملات الأخرى غير المهمة أو التي ليس لها أولوية، وحوَّلتُ بعض القضايا لزملاء آخرين. فقد قررتُ التفرغ تمامًا لتلك القضية بالرغم من انتقاد بعض الزملاء لي ومن اهتمامي المبالغ به حسب رأيهم.

- إنها خاسرة مئة بالمئة... شهود واعتراف، فما الذي تقدر أن تفعله؟

ما يقولونه صحيح، لكن ماذا عن الدوافع، ماذا عن وضعها النفسي والعقلي؟ لابد أن يكون هناك سبب، ومن ذلك السبب قد نجلي بعض الغموض، ومن ذلك قد أحصل لها على البراءة أو حكم مخفف على الأقل.

هذه أول قضية (قتل) أتبناها، بتكليف من المحكمة، أي لم أُكلَّف من قِبل أهلها أو أقربائها، إلى الآن لم يظهر أحدٌ منهم ولم يتصل أيٌّ منهم، وهي ترفض أن تذكر لي اسمًا أو عنوانًا لهم.

لكن عليَّ أن أثبت للجميع قدراتي. وإن كان المحامون في مثل هذه الحالات، إذا كُلفوا من قِبل المحكمة يكونون في الغالب ضد المتهم! يكتفون باتخاذ إجراءات محدودة رسمية وروتينية قد يحاولون استعطاف المحكمة لتخفيف الحكم.

كنتُ قد سمعتُ عن الضحية، بأنه لبق ومثقف وهناك الكثير من المعجبات يَحُمْن حوله. فمن يدري، ربما لم يكن سويًّا؛ كما قال الموظف؛ حين يكون لوحده مع إحداهن... لابد أن أتخذ من هذا الموضوع منفذًا، فلدي شعور قوي أنه السبب الأساسي أو الرئيسي لما حصل، لابد أنه

أغراها بأوهام وكلام معسول ملون، فهو وسيم ومشهور وناجح. تعمل معه منذ سنوات. متوسطة الجمال، خجولة وانطوائية؛ كما قالوا عنها. قد يكون منحها شيئًا من الثقة ووعدها بشيء من الفرح، وقد تكون صدَّقتْ أنه يحبها، وفجأة حطَّم أحلامها تلك، فانهارت كل القلاع والقصور الرملية التي بنتها، وفي لحظة جنون قتلته... مَن منَّا لا يصبح مجنونًا حين يواجه كل ذلك الحطام، ليرتكب ما لا طاقة له به في اللحظات العادية.

عرفتُ إنها أخذت إجازة قبل أيام من الحادث، بل سمعتُ من بعضهم إنها كانت تخطِّط للسفر خلال تلك الإجازة. لا يمكن أن تستيقظ من نومها لتتجه إلى مكتبه ثم تقتله وتسلِّم نفسها بلا سبب منطقي.

ارتحتُ لِمَا توصَّلتُ إليه، فنعمتُ بنومةٍ هادئة وإن تخلَّلتها بعض الانفعالات، فكلما تخطر لي فكرة أعاند أشباح النوم لأستعيدها وأسطر بعض خطوطها، فأجد صعوبة بمعاودة النوم من جديد، كما لو أنه يغضب من تجاهله لبعض الوقت، ألم يقولوا عنه: «النوم سلطان»!.

- إياك أن تتعامل مع القضايا بعواطفك.

نصحني زميل قديم ذو خبرة... لم تعجبني طريقته في التعامل مع الحياة، فبالنسبة له هي ربح أو خسارة وعلى المستوى المادي فقط، لا أقصد المادي الديالكتيكي، بل على مستوى الجيب أو الرصيد. حتى صداقاته مبنية على هذا المبدأ.

- ياعزيزي، كل شيء في الحياة وكل موقف لابد أن يكون للعاطفة

دور مهم فيه، أنا معك في ضرورة عدم تغليبها على المنطق والعقل، لكن لابد من وجودها لتكون مواقفنا متوازنة.

• • • •

حين زرتُها بعد أيام وجدتها يائسة ومُحبَطة تمامًا، فهالني منظرها وحالتها، فسألتُها بصوت مرتفع غاضب:

- هل آذوكِ؟

هزَّتْ رأسها بالنفي.

شعرها الأسود منكوش ونظرتها منطفئة. أعطيتها الحساء الذي جلبته لها، ورحت للمسئول وحمم الغضب تتطاير من عيني...

- ما الحكاية؟ ما الذي فعلتموه معها؟... من قال إنها هي القاتلة؟ ربما هي تحاول حماية القاتل أو مُهددة من قِبله... أو قد...

قاطعني أحدهم غاضبًا:

- على مهلك، ماذا بك؟ كونك محامي لا يعطيك الحق لتخاطبنا بهذه الطريقة.

تدَّخل آخر حاول أن يهدِّئ الأمر.

- أخي، أنت تعرف أنها ترفض أن تأكل... الحمد لله إنها صارت تشرب الماء، فقد كانت تكتفي ببل شفاهها فقط... كل ما هناك، أنها اعتادت على زيارتك لها كل يوم، ربما شعرتْ بيأس من انقطاعك، وهذا قد يكون أثَّر بنفسيتها.

تمتمتُ بالاعتذار، وعدتُ للغرفة مسرعًا... لاحظتُ إنها لم تمسّ الحساء، فأخذته منها وصِرتُ أسقيها إياه بنفسي. تجاوبت معي باستسلام وهي تنظر لي بخوف، ربما لمحتْ الغضب في وجهي فاستسلمتْ. جسمها

واهن ومازالت ترتعش. وضعتُ بيدها كأس الحساء البلاستيكي وطلبت منها أن تواصل شربه لحين عودتي.

أسرعتُ للمدير استفسر عن موضوع الموافقة، بحث في الأوراق والفايلات، لم يصله شيء. اتصل بآخرين ثم طمأنني:

- لابد أن تصل غدًا أو بعد غد.

لم يمنعني شعوري بالخيبة من أن أشكره، لا ضير من الصبر ليوم آخر. فقد شعرتُ بخوف من أنها يمكن أن تموت فعلاً من الجوع، فقد نحفت بهذه الفترة بشكل مخيف.

• • • •

رنَّ جرس الباب فراحت أمي كعادتها تفتحه دون أن تسأل: من؟ مازالت تعيش الثقة والأمان الذي عرفته بشبابها في القرية، حيث كان البعض يشعر بإحراج من التساؤل، فليس هناك غريب بينهم، الكل أحبة وأقرباء. لذا ركضتُ أتبعها دون أن أثير مخاوفها أو قلقها. فكرَّتُ أن أحذِّرها فيما بعد من خطورة الوضع هنا، خاصةً وأن بعضهم لا يعرف المنطق ولا العقل بسلوكه أو بقراراته.

كانت هناك فتاة أنيقة ممتلئة بعض الشيء، سلَّمت عليَّ بحرارة...

- أنا هناء، لقد زرتنا بالمؤسسة وسألتنا عن زميلتنا هدى.

قالت ذلك وقد لاحظتْ ترددي ونظراتي المتسائلة، فلا أذكر إني رأيتها سابقًا، أو لم أتذكرها ربما لأنها من الذين لم يعلِّقوا على الموضوع.

طلبتُ منها الدخول، فأسرعت أمي بارتباك لترتيب الآرائك على السريع.

مرَّتْ لحظات صمت ونحن نجلس في الصالة وقد انسحبت أمي لعمل الشاي.

- كيف حال المؤسسة، هل مازالت مغلقة؟

حاولتُ تأجيل موضوع هدى حتى نشرب الشاي.

فقالت دون أن تنظر لي.

- عُدنا للعمل... لكن إلى الآن لم يعينوا مديرًا جديدًا بعد.

- تفضلي يا أمي اجلسي معنا.

اقترحتُ على أمي وقد لمحتُ بعينيها تساؤلاً وترددًا بين رغبتها بالبقاء

والأصول التي تفرض عليها الذهاب. ابتسمت وأنا أشرح للضيفة:

- أمي كثيرًا ما تشاركني التفكير بالقضايا القانونية والإنسانية، لذا لا تترددي من الحديث أمامها.

ثم التفتُّ صوب أمي مشجعًا، فلاح لمعان فرح وتقدير بعينيها.

الحقيقة كان في ذلك بعض المبالغة، لكن قلته تمهيدًا، ولأشجِّع أمي على الموافقة لجلب هدى للبيت للبقاء معنا لبضعة أيام.

كنتُ متلهفًا لسماع ما ستقوله هناء. فقد اختلطت الصور والأفكار ولم أخرج برأي أو بشيء من الوضوح عن القضية.

- منذ متى تعرفين هدى؟... هل ممكن أن تذكري لي بعض التفاصيل عن رأيك فيها، عن تصرفاتها.

بعد لحظات من التردد...

- أولاً أتمنى أن لا تخبر أحدًا عن زيارتي هذه. أي أن ما سأقوله يمكن أن تبني عليه رأيًّا عامًا أو تصورًا ليكون خطوة لما تفكر به أو تستخدمه، كأن تقول: من خلال زملائها. لا أريد أن اتعرض لأي تساؤل أو مشكلة.

كانت تتكلم بانفعال وقد احمرَّ وجهها. فقلتُ لأطمئنها:

- أقدّر مخاوفك، ولكن إذا احتجتك للشهادة، هل سترفضين؟

تساءلتُ مستنكرًا خوفها المبالغ به.

- إذا كانت الأسئلة بحدود سلوك هدى وعلاقتها معنا.

قالتها بتردد. كانت حاسمة، فخفتُ أن تغيِّر رأيها وتخرج دون أن

تقول شيئًا.

- حسنًا، لكِ ما تشائين، أنا فقط أريد مساعدة زميلتك، أريد الوصول للحقيقة لعلّي أضمن لها محاكمة عادلة على الأقل، وأنتِ تعرفين العدل هذه الأيام؛ يتأرجح ميزانه وِفق رغبات الأقوياء.

مرَّت بذهني صور لأناس لم يجدوا حتى من يسمعهم فتلاشت صرخاتهم وذهبت أدراج الرياح، وانتابتني حالة غضب فجائية ورغبة بالصراخ عاليًا.

شربتُ كأس الماء الذي قدَّمته أمي لي وكأنها قرأتْ رغبتي قبل أن أنظر للكأس... شكرتُها وانحنيتُ أقبِّل يدها. ضحكتْ وهي تسحب يدها: «استغفر الله يا ابني».

- أنت إنسان طيب، تأكدتُ من ذلك من خلال حماسك وإخلاصك وجُهدك في هذه القضية دون أن تفكِّر بمقابل أو ثمن لتعبك، وهذا الذي شجَّعني للمجيء.

... قالت كما لو أنها لم تطمئن لي سوى الآن.

فابتسمتْ لها أمي وهي تشدُّ على يدها:

- شكرًا لموقفك، إن شاء الله ما يضيع تعب الطيبين.

ثم أصغيتُ وهي تتحدث بهدوء في بداية الأمر...

- بدأتُ العمل في المؤسسة منذ عام ونصف تقريبًا، كانت هدى هناك قبلي بأعوام حسب ماقالت لي. ارتحتُ لها منذ البداية، فهي أكثر الجميع استعدادًا للمساعدة، حتى فيما يخص عملها. لم تلجأ للتهرب من أي سؤال

كما يفعل الآخرون ممن يخافون أن تنافسهم فيما بعد على وظيفتهم، فهي لم تتردد بالجواب عن أي استفسار أو أمر، وحتى إذا كانت لا تعرفه. تبذل جُهدًا للبحث والاستقصاء لتعطيك ما توصلتْ له من معلومات، وبلا تمنن ودون أن تشعرك بأنها تعرف أكثر منك؛ كما يفعل الأغلبية.

كانت تحكي وعلى ملامحها بعض الرضا كما لو أنها ترى تلك اللحظات ماثلة أمامها.

سجَّلتُ بضع ملاحظات مما قالت، ثم انتقلتُ للكرسي المقابل لها بشكل عفوي، ربما لأكسر الرتابة، أو لأتطلع لتعبيرات وجهها وهي تحكي.

ارتشفتْ قليلاً من الماء، ثم تابعتْ:

- كنتُ أودُّ أن أقترب منها، وفعلاً خرجنا بضع مرات للمقهى القريب من العمل، كانت ودودة وكريمة، فكثيرًا ما تُصرُّ أن تدفع هي ثمن ما نشتري... لاحظت إنها كانت حزينة، وتحكي بكثرة وكأنها تخاف الصمت!.

استوقفتها للمفاجأة:

- ماذا؟ هدى كانت تحكي بكثرة؟ هل عنيتِ أنها كانت ثرثارة، أم تحكي بمواضيع معينة؟

- الحقيقة لم تكن ثرثرة، بل كنتُ أستمتع بما كانت تحكي، وشعرتُ أنها تملك معلومات وثقافة جيدة أكثر من الذين هناك، حتى من الذين يتبوأون مناصب متقدمة... وقد تعلمت منها الكثير، أمورًا لم أعرفها من قبل أو لم تكن تعنيني، فأنا من عائلة لا يعنيها أمر السياسة أو الأدب

بشكل عام... «ابعد عن الشر وغني له» كما يقولون. لكني لاحظت أن حماستها لبعض الأمور مبالغ بها بحيث تحكي بعصبية وانفعال. وكثيرًا ما يسخر الآخرون منها ومن أفكارها وآرائها، خاصةً إذا كان رأي يخص المدير أو يخص بعض مواقفهم.

توقفت هناء لحظات وكأنها تحاول أن تتذكر...

- لاحظتُ أنهم في كثير من الأحيان لا يشركونها بنشاطاتهم ولا حتى في بعض المناسبات من حفلات أو سهرات، وهي لم تكن غبية، فقد شعرتْ بذلك، فصارت حتى لو دعوها تعتذر. ثم صارت تتجنب المشاركة حتى في نقاشاتهم.

ثم تابعت بشيء من الحزن الذي لاح على وجهها.

- شيءٌ آخر آسفت له... أنا أيضًا انسحبتُ عنها دون قصد، لقد انتبهتُ ولو متأخرًا لأمر لم أفكِّر به من قبل: كلما أردتُ الخروج معها تعترضني زميلة ما بحجة أو بأخرى، ويصرون على أن أشاركهم بدونها. ثم لاحظتُ أنهم كلما تأتي هي يصمتون، أو يغيِّرون الموضوع وبشكل فاضح ومقصود... بالتدريج صارت تكتفي بإلقاء التحية، وتأخذ ما تريد من وثائق وتنسحب لمكتبها. ثم صارت تكتفي بأخذ الأوراق دون حتى سلام... حاولتُ أن أربط بين سلوكهم وموقفهم ذاك وبين رأيها به؛ اقصد بالرئيس، المرحوم.

لم أشأ أن أمنحها فرصة للصمت، فإلى الآن لم أستنتج أي شيء...

- وكيف كان رأيها به؟ ألم تكن ودية حسب ما سمعت؟

سألتها بتحفيز لعلّي أمسك بطرف الخيط الذي أبحث عنه.

- كان هو ودودًا مع الجميع، يعامل الكل كأنهم أولاده أو تلامذته؛ وإن كان لقاؤه بهم نادرًا... كنت أحترمه كثيرًا لذلك، بحيث ترى الكل يحترمه ويخدمه بود وخوف بنفس الوقت، لا أحد يمكن أن يؤخِّر له طلبًا، لابد أن ينجز ما يريد بدون تأخير، بلا ضغط منه ولا تذمر أو شكوى من أي كان... وهي بحكم عملها كانت أكثر صلة منا به خاصةً وأن مدير الحسابات معظم الوقت بالخارج لعقد صفقات ربما، أو حضور اجتماعات... المهم كانت هي تلتزم العمل بشكل عام بدلاً من المدير، لذا كانت صلتها به أكثر. كان يحترمها ويخاطبها بود لكنها...

توقفتْ لحظات، كنتُ أنتظر المفتاح بعد هذه الكلمة، مفتاح للقفل الذي صار واضحًا الآن... شعرتُ بدقات قلبي تتسارع وأنا أنتظر ما سيعقب الـ(لكنها) هذه.

ربما صمتتْ لتختار الكلام المناسب الذي لا يورِّط زميلتها ولا يورِّطها هي... كدتُ أفقد صبري وألحُّ عليها، لكن نهوض أمي وخروجها من الغرفة لبعض الوقت هدَّأ من شبح تسرعي... مع ذلك قلت بنفاذ صبر:

- لكنها ماذا؟

فتسائلتْ بشرود:

- ماذا؟

تململتُ ثم قلتُ بهدوء:

- منذ قليل قلتِ: لكنها...

تطلعتْ لي وكأنها تذكرت فقد لاح التعب عليها، فمددتها بما تبقى من ماء في كأسها...

- هل تودين أن نؤجِّل الحديث إلى يومٍ آخر، ليوم غدٍ مثلاً، أو أي يوم تحددينه؟

تطلعتْ لي بعدم رضا...

- لا، طبعًا، هذه أخر مرة سأحكي بها عن الموضوع، أرجو أن لا أكون عطَّلتك عن عملك.

- هذه القضية هي كل عملي الآن، ولكني رغبت أن أُريحك قليلاً... لا بأس إذا أردتِ أن تواصلين الآن.

أمسكتْ بكأس الماء بكلتا يديها، ثم تابعت كما لو كانت تحدِّث نفسها بصوت مسموع:

- كانت تؤكد أنه يودها ويخاطبها باحترام، لكنها كانت تفسِّر سلوكه بشيء من الشك، بشكل مختلف عنا. فعن تعاطفه معنا وعدم انفعاله أو تعامله بعصبية تقول: إنه يتعالى على الجميع، يعتبرهم دونه وعيًا وثقافةً ومنزلةً، يعاملهم بمستوى تلاميذ أو أُجراء عنده، لا يستحقون التعامل معهم كزملاء!... وحتى موضوع انتقادهم أو فصلهم من العمل أو استقالتهم يوكله لنائبه، أو للسكرتير، لكي يحتفظ هو بالصورة المتعالية الودودة المعروفة

عنه... وفي إحدى المرات وجدتها منفعلة منه تمامًا، فأخذتُها جانبًا... فوجئتُ بها تبكي، فخفتُ أن يكون حصل بينهما شيء، لكني دهشت وأنا أسمعها تقول: هل قرأتِ البيان الذي أصدره بعد الاجتماع الحزبي لهم، ونشره في الصحف؟... يا له من خبيث وحاقد، كل كلمة فيها سم وخبث. فقلتُ ساخرةً من انفعالها أكثر من رغبتي بتهدأتها: كل السياسيين خبثاء ودجالين، زمن البطولات والأفكار الكبيرة والمبادئ قد ولَّى، صدقيني، ومن يفكِّر مثل جيفارا اليوم يعتبرونه مجنونًا مثل دون كيخوته... كانت قد حدَّثتني عنهما وأعطتني بعض الكتب التي للأسف لم أقرأها كلها، وبعضها لم أقرأ منها غير بضع صفحات... المهم، وقتها واصلتْ البكاء، خفتُ عليها فسألتها بإلحاح: هل هناك أمر آخر؟ اعتبريني أختك، هل... هل اعتدى عليكِ أو أساء لكِ؟... تكلمي... صرتُ ألح عليها، لكنها تطلعت لي باستنكار: «لا طبعًا، لم يحصل شيء مما تفكرين فيه، لماذا يسيء لي؟»... ثم بعد صمت لحظات قالت بصوت خافت لكن الغضب لم يزايله» «أعتبر كل ما قاله أو صرَّح به هو إساءة إلى الكل، لنا نحن المحسوبين عليه أو على مؤسسته، إساءة للمبادئ وللحقيقة التي يدَّعي إصراره عليها»... ثم واصلتْ الحديث عن ازدواجيته وتلاعبه بمشاعر المساكين.

صمتتْ هناء لتشرب الماء، ثم التفتت لأمي التي عادت ببعض البسكويت والشاي، وهي تتابع حوارها.

- أنا واثقة أنها طيبة، من الذين يتمتعون بشفافية عالية، أو ممكن تسميتها بشفافية بلورية، فهي تعبِّر عن رأيها بصراحة بدون رتوش وبدون

مجاملة أحيانا، لاسيما مع الذين لا ترتاح لهم... قد نسميها سذاجة، فبسهولة تتعرف على ما تفكّر به حتى لو لم تتكلم، فترى ذلك واضحًا على تعابير وجهها، لذا يعتبرها البعض غبية، لكني أرى ذلك طيبة، فالطيب هو من يعبِّر عن أفكاره بسهولة أو كما نقول «ما بقلبه على لسانه» لذلك لا أستبعد فكرة أنه عرف خلافها معه، أو ربما لمح كرهها لتصرفاته وأفكاره، أو اشمئزازها من تصريحاته بلا قصد منها، وقد يكون...

صمتتْ مترددة، أو ربما تستعيد تلك اللحظة لتضع تفسيرًا أو استنتاجًا مناسبًا. لاشك تفسيرها فيه بعض المنطق، وقد أعجبني طريقة تحليلها بالرغم من ادعائها انها لا تهتم بالسياسة ولا الأدب، فسألتُها:

- هل تعتقدين أن ذلك سبب كافٍ لتقتله؟

يبدو أنني تسرعتُ بالتساؤل. فقاطعتني بغضب قبل أن أكمل جُملتي، مما جعلني أندم على السؤال ذاك.

- أرجوك كُف عن هذا السؤال، أشعر أنه سؤال غبي.

قالت بعصبية وانفعال... شعرت بإحراج كيف أردها، قد ترفض مواصلة الحديث وأخسر فرصة معرفة شيء من الحقيقة التي قد توصلني للخيط الذي أربط به الأحداث... فاعتذرتُ لها ووعدتها أن لا أقاطعها. فواصلتْ الحديث بصوتٍ حزين:

- أنا آسفة. أعرف ما تريد أن تصل له، لكني... أنا هنا لا أريد أن أدينها، أو أبرِّر ما حصل، فما زلتُ غير مصدِّقة ولا أريد أن أصدِّق أنها فعلت ذلك

حقًا. لكني أحاول أن أستجمع أفكاري عنها، وبالتأكيد قد تكون بعض من ظنوني وأفكاري على خطأ... لا يمكن أن أصدِّق اعترافها أنها هي نفسها قتلته... أكَّد البعض خلافها معه بالرأي، ولكن لا يمكن أن يكون ذلك سببًا لتسلبه حياته وتعرِّض نفسها للهلاك، لا طبعًا... لكني وأنا أستعيد صورة انفعالها، أو حين تسخر منه مما يطرحه في بعض اللقاءات التلفزيونية، جعلني أفكِّر بأمر قد أكون مخطئة به، فانفعالها لابد أن يكون له سبب آخر ومبرر أقوى... أعتقد أنها كانت تحبه، فقُرْبها منه بحُكم عملها، وشخصيته المحببة وأسلوبه الدبلوماسي وهو يخاطب الزملاء أو العاملين معه، جعلها تفكِّر به، خاصةً وهي بلا صديق ولم ترتبط بأحد... لكن صدمتها بأفكاره الخطرة كما تسميها، جعلها منفعلة... أو ربما أنها وجدتْ منه رفضًا، فهو متزوج وعلاقته جيدة بعائلته... فأرادت أن تنتقم منه من خلال انتقادها لأفكاره وأسلوبه والسخرية منه كمحاولة لتفنيد أفكاره وما يطرحه من تفسيرات لبعض الأمور السياسية وكشف كذبه... أو أنه تجاوب معها من باب شفقة فاكتشفت ذلك فصارت تسخر منه... وقد يكون أحد ما أخبره وأوصل له الأمر فتشاجرا، أو سخر منها وبلحظة جنون انتقمت لكرامتها منه بهذه الطريقة...

توقفتْ لحظات كما لو كانت تلتقط أنفاسها، فجلبتُ لها كأس ماء. شربته دفعة واحدة، ثم واصلتْ الحديث:

- أو قد يكون هناك من استغل مشاعرها ورأيها ليشحنها بمزيد من الكراهية أو ضرورة الانتقام والتخلص منه. فبالرغم من محاولته لجعل

علاقاته حميمية مع الكل، هناك من يعرف نواياه ويعرف كذبه واستغلاله لهم... لا أدري، قد لا يكون لما قلته أهمية أو أرضية لما حصل... صدقني هذا الأمر صار يأكل ويشرب معي، أو بالحقيقة يأكلني ويشربني، فأكاد لا أنام إلا لبضع ساعات، أقلِّب الأمور لوحدي، فلا أقدر أن أشرك الزملاء بما أفكِّر فيه، فجميعهم ضدها، بل بعضهم لأسباب لا أعرفها أو ربما نفاق وتقرب من أهل القتيل، صار يعلن غضبه ورغبته بقتلها.

صمتتْ وعضَّتْ على شفتيها، ثم غطَّتْ وجهها بكفيها وراحت تبكي على زميلتها، أو ربما مديرها، وأيام الهدوء والراحة التي صارت تفتقدها.

بعض ما قالته فكَّرتُ به أيضا. بالنتيجة لم أتوصل من خلال ما سمعته إلى معلومة تؤكد أنها ضحية، أو مجنونة، فبقي القفل مغلقًا لم يظهر أثرًا لمفتاح ما.

نهضتْ بعد رفضها القاطع للبقاء للعشاء معنا رغم إلحاح أمي. فخرجتُ معها أوصلها لعلها تتذكر شيئًا آخر ونحن في الطريق، لكنها رفضت بإصرار، لا تريد أن يراها أحد معي!

احترمتُ رغبتها، ودخلتُ المطبخ أتطلع لأمي بشرود.

- ها؟ يبدو أن الأمور لا تبشِّر بخير.

- لم تقل شيء ذا قيمة، تفاصيل عما سمعته من قبل لا أكثر، لكني اتأمل أن أجد منفذًا ولو صغيرًا من خلالها لحقيقة ما زالت بعيدة.

- المهم، ارتاح الآن لنتعشى وغدًا لناظره قريب... فكرتك أن تأتي بها

هنا لا بأس بها، فالمفاتيح معها هي، لعلها حين تطمئن لك تسلِّمك إياها.

قالت مبتسمة وهي تربت على كتفي.

- المهم لا أريد أن يعرف أي كان عن وجودها هنا، وعلى كل حال لن تبقى أكثر من بضعة أيام، فلا داعي لزيارات من جيران أو أقرباء أو...

- اطمئن. ولو صادف أن لمحها أحد سأقول إنها ابنة أخي ومريضة.

- لا داعي لذلك.

شعرتْ بقلق وأنا أطلب منها أن تخفي كل السكاكين والأشياء الحادة وكل ما يمكن استخدامه للانتحار، وأن ترتِّب الغرفة بشكل يوحي بالهدوء والاسترخاء.

• • • •

لا أذكر من ذلك اليوم غير تلك المكالمة في ساعة متأخرة من المساء...

- جبار؟... أهلاً، عاش من سمعك... خير؟

- هل بإمكانك المجيء الآن إلى بيتي؟ أعرف أن الوقت متأخر، لكن هناك قضية مهمة سأشرحها لك بالتفصيل حين تصل.

اضطربت عصافير أحشائي «قضية مهمة»!

جبار كان محاضِرًا للقانون في الجامعة التي درستُ فيها، صار بيننا نوع من الصداقة بعد التخرج وصرتُ أتردد على مكتبه بالرغم من خلافنا بالفكر وأسلوب الحياة. لكنه فرض احترامه ومودتي له، فقد تميز بهدوئه ودماثة خُلقه، فحتى لو حاورتُه بعصبية يهدِّئ من انفعالي بأسلوبه المميز وإصغائه.

إذن لابد أن الأمر مهم جدًا ليطلبني الآن ولا يحتمل انتظار الصباح.

استأجرتُ تاكسي وتوجهتُ إلى بيته البعيد عن مركز المدينة في ضاحية من تلك التي يقطنها الأغنياء؛ المميزة بهدوئها وطبيعتها الزراعية حيث الحقول الخضراء والبساتين تحيط شوارعها، ومساكنها الواسعة البعيدة عن بعضها البعض المميزة بتنوع طراز بنائها. أنا أسكن في الضواحي أيضًا ولكن في حي شعبي يشاطر الأحياء الأخرى الفقيرة بازدحام بيوتها الصغيرة وتراصفها في شوارع ضيقة.

- كان لابد أن أراك الآن لأعرف إن كنت مستعدًا أم لا، ليكون لي مجال الاتصال بزميل آخر.

كان قلقًا وهو يقدِّم لي كأس العصير بقليل من الكحول، كان يضحك وهو يقول: هذا مشروب النساء المفضل.

- ما الموضوع؟... خير إن شاء الله، ما دمتَ اخترتني؛ إذن أنا مستعد.

- أشكر لك ثقتك... الموضوع يا سيدي: اتصل بي المدعي العام وبعض المسؤولين في المركز القريب من مكتبي وأبلغني أن هناك سيدة أو فتاة سلَّمت نفسها وهي تعترف بقتل السيد منصور عبد الإله، رئيس حزب العدل؛ لابد أنك سمعت به؛ وطلب أن أختار محاميًا لأُرشحه للدفاع عنها، لأنها بلا محامي وترفض أن تعطي أي معلومات عن أهلها أو أي من له صلة بها... وعلى العموم لا أعتقد أن هناك من تعرفه وإلاّ كانوا اتصلوا بالمركز بعد نشر صورها بالصحافة مع ما كُتِب عن موضوع القتل.

كنت أصغي له، كان منفعلاً بعض الشيء، ربما لأنه لم يكن يرتاح لمنصور وفوجئ بموته بهذه الطريقة وهذه السرعة غير المتوقعة.

لستُ من المهتمين بأطروحات ذلك الحزب أو غيره، فمنذ أيام الجامعة كوَّنت قناعة أن أغلب الأحزاب؛ سياسية أو دينية؛ لا تختلف عن الشركات التجارية، مهما غلَّفوها بشعارات أو أيديولوجيات. لم أتأثر بموته، ولكن استنكرت قتله، لماذا يُقتل؟ فلم يكن من النوع الذي يجاهر بعدائه لأحد، وإن كان يبرِّر لبعض عمليات القتل. لا أظن أن الدافع سياسيًا، لابد أن هناك سببًا شخصيًا وراء عملية القتل تلك.

وافقتُ، واتفقنا أن نذهب في اليوم التالي لأعرف تفاصيل القضية وأقرأ المحضر وأتعرف على المتهمة.

• • • •

لم يكن الطريق إلى هناك موحشًا، لا متربًا، ولا الوجوه التي مرَّرتُ بها منطفئة... لِمَ هذا الخوف إذن أو القلق... أصوات سمعتها يومًا ربطت حبالاً خشنة حول قدمي وصارت تسحبني بثقل لهوة لا اتجاه لها... وقفت بمحاولة لأزيحها، لكني وجدت نفسي أصغي بقوة ويتحول كياني لعيون تستعيد المكان وأذُن تستعيد ذلك الصراخ أو حالة التوجع تلك...

كنا يومها قد عبرنا متسللين عبر أسوار الوطن، لم يكن العبور مشيًا، بل من سيارة إلى أخرى لنعبر عبر شمال الوطن لشمال وطن شقيق لم نره من قبل... لم تكن وثائقنا مزورة بل كانت قانونية دفعنا، بكل ما نملك لحلق السبع لننتزعها من بين أسنانه... إذن لم ذلك الخوف؟ الذي تكاد تلمسه رذاذًا أو غبارًا يتهاطل مطرًا فيحجب عنا الهواء، خوف له روائح من التي تجتاحك مهما وضعت من مناديل على أنفك وفمك... لم الخوف؟ إذا لم يقبلوا بنا سنعود من حيث أتينا.

ولكن من -حيث أتينا- سينتقمون منك كما لو كنت قتلت عزيزًا لهم بلا سبب، سيضحكون من خوفك ومحاولتك النفاذ من بين قضبان الوطن وهم يتلذذون بالسياط تلهب ظهرك.

حين دخلنا شعرت بيد امرأة شابة تتمسك بيدي ثم تنتبه وتعتذر لتلوذ بأبيها، فقد سمعت هي الأخرى تلك الأصوات... أنا وهي لم نقدر أن نخفي الخوف والقلق تحت غلالة اللامبالاة. لعلهم لا يرون خوفنا ويستخدمونه تهمة ليمارسون حفلة التشفي واستفراغ خوفهم وجُبنهم ضدنا...

كانت الأصوات آتية من بين نوافذ السراديب الصغيرة المغلقة بأسلاك

معتمة من كثرة ما مرَّ عليها من غبار ودخان وعرق أيضًا، أصوات لا تمت لكائنات عرفناها، أصوات لأرواح تتعذب وهم يحاولون انتزاعها من أجسادها التي لم تحتمل العذاب... هل كانت سياطًا؟ أم طريقة أخرى للتعذيب؟ هل هي أدوات اخترعوها لتلك المهمة؟ لماذا؟ ما الذي فعلوه هؤلاء ليستحقون كل تلك العذابات؟

وما جدوى صراخهم إذا لم يسمعهم أحدٌ وينجدهم؟ ألم يضع الله أو الطبيعة غريزة الصراخ تلك للكائنات كلها كوسيلة لطلب النجدة؟ أو هي وسيلة للتنفس، فالألم أحيانا يسد منافذ التنفس وتضيق الرئتان فلا يمر منهما ما يحتاجه البشر من هواء. ربما هذا هو السبب البيولوجي للموت تحت التعذيب! حين تنقطع حبال الصوت وتصطدم الصرخات بجدران صلبة لا منفذ منها.

أصوات كانت خليطًا من آلام مخاض ولادة طفل، مخاض منح حياة ومخاض انتزاع الحياة... تراجع الدم من كل جسدي ليحشر بتلك العضلة التي صارت تدق طبول الخطر لكل أحشائي. فلم أحتمل تطلعتُ للوجوه، كانت غير مبالية! أو أنها لبست قناع اللامبالاة البعيدة عن الشجاعة...

هل أنا شجاع؟ وماذا ستفيدني شجاعتي، هل أقدر أن أسأل «ما هذا الصراخ؟... أنت أيها الشرطي، أيها الضابط، هناك إنسان يتعذب... أليست مهمتك إنقاذه؟».

سيقودك لهناك ويرميك معهم... إذا أردت أن تدافع عنهم، لم لا تكون معهم بالأول؟

سيضحكون ملأ أسنانهم السوداء والمغلفة بمعدن الذهب والفضة... إذن الشجاعة أن تتمالك نفسك وتصمت، لتمر من سم الخياط وتنفذ من عين الإبرة، لتبتعد عن هذا السجن المترامي الأطراف الذي تمتد حدوده لما بعد الوطن.

الوطن «العزوة في الغربة وطن» «أرض الله واسعة... من يبقى بأرض تذله فقد كفر بنعمة ربه» من قال هذا؟ لابد أنه أنت، أردت به تبرير هروبك من السجن الكبير، فكلها أرض الله... ما بالهم يحرِّمون أرضه على الناس المعذبين.

كان أقسى أسبوع مررت به حتى أنجزت معاملة هروبي إلى أرض الله. فتلك الأصوات بقيت ترافقني أيامًا وشهورًا، تقض مضجعي وتحرمني النوم كأنها تدينني... تمنيتُ لو سجلتها ليسمعها الآخر القادر على كل شيء قدير... على الأقل ليعرف ما جريمة هؤلاء... ألا يكفي السجن وحرمانهم الحرية عقابًا؟

حين دخلت ذلك المعتقل لم أسمع صراخًا، وتلك الأصوات القديمة قد تلاشت أمام ضحك الشرطة ومزاحهم مع الزميلات... لم يكن هناك غير بعض الاعتراضات من بعض المقبوض عليهم توًّا خاصةً السود وهم يسبون الشرطة بألفاظ بذيئة، والآخر يرد بهدوء وبرود: «من حقك أن تبقى صامتًا لأن أي شيء ستقول ستحاسب عليه وربما سيكون ضدك». نحن مارسنا حقنا بالصمت الرهيب... كاد يكون الحق الوحيد الذي لم نُعاقَب عليه أو نُحرَم منه.

دخلتُ الغرفة، لم يكن هناك غير كرسيين، كانت هي تجلس على أحدهما ساهمة ترتعش بردًا أو خوفًا ربما... وطاولة وشرطية جميلة تقف بالباب لم يظهر على ملامحها أي انفعال ولا تعاطف ولا غضب، ربما لأن كلا الطرفين لا يخصانها من قريب ولا بعيد.

• • • •

طوال الطريق إلى البيت، لم تقل كلمة واحدة، لكنها ظلت متمسكة بيدي وكأنها تخاف أن أفلت منها واختفي، أو أنها ستتلاشى لو أطلقت يدها!.

رحبَّت بها أمي متعاطفة معها وسقتها شاي بأعشاب مهدئة، أعدّتْهُ بوصفة اخترعتها هي من النعناع وقشر التفاح الطري مع شيء من الدارسين.

بعد الغداء الذي أُجبرتْ على تذوقه، أعطتها أمي الفستان والبيجامة التي اشتريتهما لها، وتركناها لتنام.

بينما حاولتُ أن أساعد أمي بالمطبخ...

-مسكينة... معقول أن تكون مقطوعة من شجرة! لابد أنها مُحرجة من أهلها لا تريدهم أن يعرفوا ما جرى لها.

- ربما...

قلتُ بشرود وأنا أفكِّر ما الذي يمكن أن أفعله لأدعها تتكلم. ثم شكرتُ أمي وأنا أقبِّلها من رأسها.

انسحبتُ إلى غرفتي وحاولتُ أن أجبر نفسي على قراءة الرواية التي تركتها منذ أيام كمحاولة للاسترخاء والبحث عن الهدوء وصفاء الذهن. لكني وجدت صعوبة بالتركيز، فرجعت للصالة لأنشغل بالتلفزيون، سمعت أمي تتحاور مع إحدى قريباتها:

- أنا مشغولة هذه الأيام... خليها على الأسبوع القادم.

فقلت لها بعد إغلاق السماعة:

- لا داعي لتعطيل نفسك.

نظرتْ لي بطريقة لم أعرف تفسيرًا لها، فيها استغراب وتأنيب، بدلاً من شكري وتقديري لمشاغلها.

- كيف أترك البيت وهي هنا؟... أنت تعرف الناس وغباءهم في تفسير الأمور.

ثم تركتني ودخلت لتطمئن عليها.

شعرتُ بارتياح وأنا أسمعهما يتحاوران. خرجا من الغرفة معًا. دُهشتُ وأنا أرى أمامي فتاة أخرى غير تلك التي أتيتُ بها منذ حين! شعرها أسود ناعم ينساب على رقبة ممشوقة، وعينان حزينتان لكن فيهما بريق جميل، مع ابتسامة خجولة على شفتيها اللتين صارتا متوردتين.

- ارتاحي هنا... سأجلب لك الشاي مع الكيك الذي عملته بنفسي، فأنا لا أحب الكيك الجاهز.

- ممكن أساعدك؟...

سألتْ بارتباك وتردد.

- اليوم للراحة، وغدًا سألزمك بنصف أعمال البيت.

ابتسمتْ لها أمي ممازحة وأسرعت للمطبخ.

- هل نمتِ بشكل جيد؟

سألتها مبتسمًا. تطلعتْ لي كأنها غير مصدقة وجودها معنا، ولم تجب

على سؤالي.

- أمك ملاك، لا علاقة لها بالبشر.

- شكرًا. لا وجود للملائكة مع الأسف، ولكن ربما هي من الذين لم تصادفينهم أنتِ بعد.

كنتُ سعيدًا وأنا أسمعها، غير مصدق، حتى صرتُ أتطلع باتجاه آخر لأركِّز على صوتها الذي بدا دافئًا وصافيًا بالرغم من التعب والإرهاق الواضح عليها.

- كنت خائفة أن تعاملني بقسوة وهيَّأت نفسي لتقبل ذلك، فمن حقها أن تتخذ مني أي موقف مهما كان قاسيًا.

علَّقت أمي على كلامها وهي تضع الصينية على الطاولة:

- يا ابنتي أنتِ ضيفتنا، وأشعر أنكِ لستِ ممن يبدو عليهم هواية القتل، لابد أن هناك سببًا قويًا دفعك لذلك. قال من هداك على المُر، قال الذي أمرّ منه.

لاحظتُ إن يديها خفَّت ارتعاشتهما وهي تمسك بكوب الشاي بكلتاهما، لتدفئهما ربما، تنظر للأرض وتتجنب رفع بصرها. أمي تتأملها بأسف وحزن عميقين كما لو كانت تدرس وجهها لتكتشف ذلك السر الذي يحيرنا كلنا. صرت أنظر لها بشوق وتلهف لأسمع منها.

- لِم إذًا لا تخبرين أهلك أو أحد من أقربائك، وجود المحبين وقت الشدة يخفِّف منها.

فاجأتها أمي بالسؤال. فصارت تتأمل كوب الشاي كما لو تقرأ الطالع، أو تنتظر أن يظهر الجواب من هناك مع البخار القليل المتصاعد.

أشرْتُ لأمي أن تؤجل سؤالها، فقلت نيابةً عنها:

- كل شيء في حينه إن شاء الله، حين تأخذ البراءة سأوصِّلها بنفسي لأهلها أينما كانوا.

تطلعتْ لي بيأس، ثم حملتْ صينية الأكواب الفارغة وأخذتها للمطبخ. فأشرتُ لأمي أن تسمح لها بذلك، وتبعتها هي بما تبقى من الصحون. هناك عانقتْ أمي وراحت بنوبة بكاء، لتشاركها أمي بكاءها، فهي تنتظر أي فرصة لذلك لإطلاق العنان لدموعها وحزنها المتجدد على فراق الأحبة وأبي.

بالرغم من عدم ارتياحي لحفلة البكاء تلك، لكني تأملت أن تذيب بعض الجليد المتراكم، أو ذوبان بعض من صخور الصمت، فصمت كهذا ممكن أن يكون قاتلاً بلا سلاح.

حاولتُ أن لا استعجل الأمور، لكن ليس أمامي غير بضعة أيام، قد أجدِّدها لأسبوع إذا حالفني الحظ، ولم يبقَ الكثير على موعد المحكمة. وأهل الضحية يستعجلون إنزال العقاب بها بأسرع وقت ممكن.

بالرغم من الخوف أن يكون هناك من يترصدنا؛ اقترحتُ عليها أن نخرج نتمشى قرب النهر. بيتنا بعيد عن المدينة ولا أظنهم سيعرفون بأمر وجودها معنا.

لم يكن النهر بعيدًا، مسافة ساعة أو أكثر سيرًا. اصطبغ وجهها بلون

وردي، لا ادري إن كان خجلاً أم فرحًا. فتطلعتْ لأمي كما لو تستأذنها. لكني لمحتُ خوفًا وقلقًا بعيني أمي، وقد أخذتني جانبًا وهي تهمس لي عن خوفها من هذه المغامرة. طمأنتُها وأنا أضحك من فكرة خوفها عليَّ من تعريض نفسي للقتل ربما!

- لا أقصدها هي، ولكن من يدري من هو وراء تلك الجريمة أو من دفعها لها.

قبَّلتها من رأسها وأنا أؤكد لها أنه لن يحدث شيء مما يخيفها.

كان الجو رائعًا ببرودة منعشة، تمسكتْ هي بذراعي، قد يكون خوفًا أو رغبةً بالاستناد عليَّ فمازالت واهنة القوى. فاستأجرتُ سيارة لتقلنا إلى هناك.

على ضوء المصابيح لمحتُ فرحًا طفوليًا على وجهها. همستْ بصوت متعب:

- هذه أول مرة يطلب مني أحد السير معه على الشاطئ، أقصد النهر.

وهي تتطلع للمكان كما لو تريد استكشاف كل ركن فيه بهذه اللحظات. ثم تابعتْ:

- وربما ستكون أخر مرة، أرى فيها هذا المكان الجميل.

احتضنتُ كتفها بذراعي:

- تمتعي بهذه اللحظة، وأنا واثق أنها لن تكون أخر مرة.

ثم سألتها:

- ألم تكن لكِ علاقة بشخص ما؟... - لم أقدر أن أتمم - ليأخذك لمثل هذا المكان.

تطلعتْ لي ثم تعلقتْ بذراعي وقادتني لأقرب مقعد خشبي، جلسنا هناك. ثم أخذت كفي وقبَّلته! فوجئتُ بذلك وشعرت بأسى عليها، فقبَّلتُها من رأسها وقد خِفتُ من خاطرة أن تقول لي «أنت أول واحد». لابد أن أبعد هكذا عواطف. فقلت بلا تخطيط للسؤال:

- شابة رقيقة وجميلة مثلك، لابد أن يكون لها معجبون.

توقعتُ أن تتأثر بما قلتُ، لكن يبدو أنها لم تكن تصغي، فسمعتُها تردِّد بما يشبه الهمس:

- توقعتُ أنهم سيحكمون عليَّ بالإعدام فورًا حالما أعترف لهم... ألم يقولوا إن الاعتراف سيد الأدلة؟... لم أتوقع أن تمرَّ الأيام والليالي وأنا أنتظر، وإلا ما كنتُ سأسلِّم نفسي... كانت الخطة ستنجح، ولكني خِفت... خِفتُ من العيش مع صورة القتل، مع الذنب الذي شعرته ثقيلاً يهدُّ كتفي وجسدي وقد حطَّ عليَّ كشبحٍ في اللحظة التي خرجتُ فيها من المبنى ارتعش كُلي، بل أحسستُ بكفيه تخنقاني... فركضتُ... ركضتُ بأقدام ليست لي... وجدتُ نفسي أدخل أقرب مركز شرطة.

كانت تتحدث وهي تتأمل يديها بشرود... فاقتربتُ منها أكثر:

- هل قلتِ إنه كانت هناك خطة للقتل؟... مَنْ وضعها، لابد أن تقولي لي كل شيء.

خِفتُ من صمتها، فاللحظات التي مرَّتْ بعدها كانت كأنها دهر. وضعتُ يدي على كتفها وتابعتُ بهدوء:

- أعرف أنه كان زير نساء، وله معجبات كثيرات، هل حصل أن تحرَّش بكِ أو أعلن عن إعجابه، ربما اِعتقدَ أنكِ من اللاتي يخدعهن الكلام الملون أو المعسول كما يقولون... لابد أن تصارحيني بكل شيء، لدي ثقة بأنه إنسان غير سوي ويخفي الكثير من الشرور.

لم أكمل وأنا أرى نظراتها الغاضبة والساخرة أيضًا. كانت بذهني فكرة بأن لو كان الدافع انتقامًا للشرف أو دفاعًا عن النفس في حال مراودته لها، فمن السهولة الحصول على البراءة. أو فكرة زميلي الذي أكَّد أن يكون هو صاحب السلاح، فليس من المعقول أن يكون لها وإذا ثبت أنه لها سيكون فعلاً جريمة مع سبق الإصرار. لكنه بمنصبه وإدعاءاته بالتعرض لتهديدات، لابد أن يكون له سلاح ليدافع به عن نفسه.

بروتينهم الممل إلى الآن لم يتوصلوا لملكية السلاح، اكتفوا بأنهم لم يجدوا على المسدس غير بصماتها هي. سأحاول أن أقنعها بهذا الأمر، فسيكون من السهولة إقناع هيئة المحكمة والرأي العام.

أعرف أن هناك مئات القضايا بُرِّأ أصحابها ببراهين لا أساس ولا واقع لها. كذلك أُعدِم المئات أو الآلاف بناءً على قصص مختلقة وحقائق كاذبة بلا أدلة ولا شواهد.

نهضتْ بعصبية وشبكت كفيها على رأسها. ثم التفتت لي وقد عاد

الشحوب لوجهها:

- لا، قطعًا لا، لم يكن الأمر كما تتصور... نعم كان له معجبات كثيرات، بل البعض منهن هن من يبادرن بالغزل والمديح لدرجة أشعر أنه لا يمكن أن يصمد أمامهن ولابد أن يستجيب لهن، خاصةً من هن جميلات ومغريات بشكل ملفت للنظر.

سارت وأنا أتبعها وقد صرتُ كلي أُذنٌ صاغية:

- لابد أن ذلك يثير الغيرة.

لمّحتُ بذلك وفي ذهني صورة لغيرتها هي، ربما لم تتمكن من الوصول لهن فكان هو الأقرب!.

- زوجته لا تعرف بهن، لكنها واثقة من حبه لها... كانت تسخر ضاحكةً من هكذا موضوع وقد سمعته مرة يحكي لها عن إحداهن إنها طيبة وجميلة جدًا، ومن ذلك أتت ثقتها بنفسها أو ثقتها به... دائمًا كنتُ أقول إن الجمال أقوى الأسلحة بالنسبة للمرأة، بل هو أفضل الأسلحة لمواجهة الحياة بكل مصاعبها.

- إذن كنتِ واثقة أنكِ مدججة بالأسلحة من هذا الجانب.

قلتُ مازحًا ومشجعًا لها.

نظرتْ لي والدموع تملأ عينيها:

- لقد حسمتُ أمري من زمنٍ بعيد، أعرفُ أني بلا سلاح من الذي ذكرته.

ثم كما لو أنها تذكرتْ:

- كيف لي أن أعتذر لها، لزوجته... يا إلهي، لابد أنها تحقد عليّ الآن... لا ألومها، لها الحق لو فعلت... هل بالإمكان الاتصال بها قبل المحكمة؟

- هل كنتِ على علاقة جيدة معها؟

- لم أرها غير بضع مرات، مرة في مكتبه تلك التي ذكرتها لك، ومرة زرتها في البيت لجلب بعض السجلات، لكني تحدثتُ لها كثيرًا بالتليفون... كانت تشاركهم الحفلات التي تقيمها المؤسسة، ولكني لم أشاركهم بها.

- لماذا... لماذا لم تشاركيهم؟

- أشعر معهم بغُربة، لا شيء يربطني بهم، فارتبك وأنا أتوقع عيونهم ترقبني، تترصد كل حركة مني ليستخدمونها بحواراتهم الساخرة للنيل مني... وقد سمعتهم أكثر من مرة يسخرون بطريقة قاسية من البعض.

- وهو... ألم يدعوكِ مرة؟

- بلى، كان يعاتبني لعدم مشاركتي، ويقول «كانت الحفلة ستكون أجمل لو حضرتِ» أعرف أنه كان يجاملني ولا يعني ما يقول... لكني كنت أحب هذه الميزة فيه، كلماته كانت أشبه بنسائم لطيفة تخفِّف من الجو الحار، أو جرعات من شراب يعزِّز الثقة بالنفس.

- «هل صارحتِه بحُبك؟

ندمتُ على سؤالي وأنا أرى نظرتها المؤنبة.

- هل جننتَ؟... متى قلتُ إني أحبه أو أحببته؟... قلتُ إني أحببتُ تلك الصفة فيه... لم أشعر إزاءه بحُب من الذي تفكِّر به، كنت أحترمه وأرتاح له.

صمتتْ وهي تهز رأسها باستنكار:

- مِنْ أين أتيتَ بمثل هذه الفكرة؟ عرفتُه وهو متزوج فكيف لي أن أبني حُبًا على وهم، فأنا أعتبر الزواج مثل حبة المضادات، التي المفروض بها أن تمنع كل الفايروسات، أي كل فرصة لأي علاقة أخرى أو أي خيانة. ولستُ من النوع الذي يبحث عن مغامرات أو يستسهل الخيانة.

- أنا آسف، لم أقصد الإساءة... أنتِ جميلة بلا شك، والحُب لا يأتي بخطة، بل يقع هكذا مثل القدر، فكثيرٌ من الرجال يقعون بحُب مَنْ تتجنبهم.

- لابد أنك بنيت القضية على أنها غيرة، أو حُب وانتقام... أليس كذلك؟

تساءلتْ بسخرية فيها حزن وخيبة.

- إنه مجرد احتمال، وإن كان ضعيفًا... لنُبعده إذن ونركِّز على الذين خطَّطوا لعملية القتل... مَنْ هم وهل لهم أهداف سياسية؟

لاحظتُ أنها صارت تمسح على كتفها وقد عاودتها ارتعاشتها. خلعتُ سترتي ووضعتها على كتفها، تأملتني:

- سأقول لك كل شيء، لا أدري كم سيطول الوقت، لكن عِدني فقط بشيء واحد: أن يكون الموت سريعًا.

خِفتُ أن تفلت رغبتها بالحديث وأضيِّع هذه الفرصة، لذا قررتُ أن أحدِّثها فيما بعد عن الحياة وجمالها والأمل بالحصول على البراءة، وإن كنتُ عوَّلتُ على أمل البراءة الذي قد يجعلها تتذكر أشياء تساعدنا بالقضية.

- أعدكِ بذلك... أريد أن أعرف من هم المخططون، قد يكونون من داخل حزبه، فقد عرفتُ أن الكثيرين منهم كانوا يكرهون غروره وحُبه للشهرة والأضواء على حساب حزبهم، ويحقدون عليه... إضافةً إلى آرائه التي يصرِّح بها بتسرع وتهور... لابد أنها تسببت بالأذى للكثيرين وقد خططوا للتخلص منه.

- لا أعرف ما الذي تقصده... لم يخطِّط أحد ولا صلة لي بأحد، لاشك أن هناك الكثيرين ممن يكرهونه، ولكنني أعرف أيضًا أن المخدوعين به ومن يحترمونه كثيرون أيضًا... فمثلاً في إحدى المرات كنتُ أبحث عن بعض الوثائق المالية، فلم أجدها بمكتبي ولا على مكتب المدير، فطلبتُ من السكرتير أن يعطيني كل الملفات حتى الرسائل لئلا تكون تلك الوثائق حُفظت هناك بالخطأ... أخذتها لمكتبي، وصرت أقلِّبها ببطء وتأنّي فوجدت نفسي أقرأها، كثير من رسائل المشاهدين وأعضاء الحزب، وقُرَّاء من معجبين ومعجبات رجالاً ونساءً، محشوة نفاق أحيانا، وحُب وإعجاب غبي أحيانا أُخرى: «أنت صوت الحق السرمدي... أنت القائد الأبدي... أنت هبة من الله...» وغيرها من العشرات، فدفعني ذلك لأقرأ ما يكتب وما يصدّر من بيانات وأتابع لقاءاته وتصريحاته بالتلفزيون، فربما هم على حق... ولكن هالني حجم الكذب والخداع، أخافني كم التلاعب بمشاعر الناس والضحك عليهم... تألمتُ لهم، خاصةً الذين يأخذون ما يقول على أنه حقائق ومسلمات أقرب لآيات مقدسة... أكاد أشعر ببعضهم مستعد لعمل أي شيء له فلو قال لهم اذهبوا للجحيم سيذهبون بلا تردد! لو طلب منهم

الانتحار من أجل شعارات فقاعية يطلقها من حين لآخر، لن يجد هناك من يقول له: لِمَ لا تذهب أنت؟... حتى صار البعض يبعثون بشكاويهم ومشاكلهم له، معتقدين أنه سيحلها لهم، وهو لم يكلِّف نفسه جهد الاعتذار لهم، بل احتفظ ببعض من هذه الرسائل ربما ليضحك منهم ومن عقولهم أو ليتخذ من تلك الرسائل وسيلة للتسلية!... بل حتى البعض من أقربائه لجأوا إليه مرات للمساعدة، اعتذر لهم، فقط لأنهم فقراء ولا ينتظر فائدة أو مقابل لمساعدته لهم، فكثير ما ساعد رجال الإعلام والصحافة وبعض المحطات التلفزيونية لأنه يعرف أنه سيستفيد منهم... مع انه لن يخسر شيئًا من جيبه بل كله من مال الحزب، الذي ينثره على ذلك التلفزيون وتلك الصحيفة للدعاية له... ولنشر كذبه وكل ما ينطق به من هراء بلا نقاش ولا تردد... المهم أن يوهم البعض بكرمه اللامحدود، وهم لا يعرفون أنها أموالهم تلك التي يبعثرها على الحفلات والمؤتمرات، التي يبيع بها بطولات وشجاعة... ومن ناحية أخرى يستخدم المساكين كقطيع يردِّدون ما يقول ليعزِّزون وجهة نظره وبما يرضي غروره... وهو يوحي لهم بالتواضع حين يتنازل ويلتقي بهم ويحدِّثهم بروح أبوية، ليبيعهم تجارته التي لا تتعدى الكلام بالسياسة وبما يتوافق مع أفكارهم، أو أوهامهم، ولكي لا تنقطع الهبات والدعوات لإلقاء المحاضرات هنا وهناك.

توقفتْ وقد أتعبها الحديث بعد انقطاع عنه دام أيامًا.

كنتُ سعيدًا وأنا أسمعها تسترسل بالكلام. وتذكرتُ حديث «هناء» عنها، وبنفس الوقت داهمتني صورتها الصامتة قبل أيام.

اقتربتْ من شجرة تنحني باتجاه النهر فقطفتْ ورقة منها وصارت تفركها بيدها وتشم رائحتها، ثم عادت لتجلس بجانبي.

- كثيرًا ما أخرج للحديقة العامة أجلس هناك أتأمل الأشجار، أحاورها، أقطع من كل واحدة ورقة وأجفِّفها، حين تجفُّ تحتفظ بلونها وأحيانا برائحتها أيضًا، فأعمل منها أشكالاً أؤطرها... لو كنت أعرف أني سألتقي بك لاحتفظتُ بها لأُهديكَ إياها.

ابتسمتُ لها شاكرًا ومشجعًا:

- لا بأس، ستعودين لهوايتك تلك من جديد وتهديني إحدى أعمالك.

- أتعرفُ أن الناس مثل الأشجار؟ البعض بألوان زاهية وعطر جميل، وبعضها ضخمة وألوان خضراء ولكن بلا ثمر ولا رائحة، بلا عطر... العطر اعتقد أنه هو الروح... كذلك الإنسان مثل الأوراق المقطوفة قبل أوان الخريف، حين يموت صغيرًا تبقى صورته حيَّة متجددة، هذا إذا كان هناك من يذكره !

قالت الجُملة الأخيرة بأسى ويأس.

نظرتْ لي، ابتسمتُ لها وشعرت بإحراج وكأني أستعجلها لمواصلة الحديث. صار صوتها ناعمًا ودافئًا وقد انزاح عنه بعض التعب. لابد أن الجوع كان سببًا آخر لمنعها من الكلام. لكني قلت:

- لقد تعبتِ، هل تريدين العودة للبيت؟ لنكمل حديثنا فيما بعد؟

بقيتْ صامتة لم تجبني على سؤالي. لكنها تابعت حديثًا شعرت أنه

موجهًا للنهر أو للأشجار!

- كنتُ طالبة بالسنة الأخيرة في قسم المحاسبة حين التقيتُ به لأول مرة في إحدى محاضراته في الجامعة... كثيرون كانوا يتحدثون عنه بإعجاب؛ عن طريقته بالحوار وعن أسلوبه، وهذا ما شجَّعني للحضور... بلى، كان لصوته وطريقته بالكلام مفعول السحر، خاصةً وشخصيته من تلك التي تنقاد لها بسهولة، فعرفت أن أغلبهم لا يسمع ما يقوله أو بالأحرى لا يفقه ما يطرحه. فقد انتبهتُ إلى وجود الكثير من المغالطات وتغيير بعض المفاهيم بشكل يتماشى مع ما يريد أن يقول، مع ذلك تعالى التصفيق! فاعترضتُ على ما كنت متأكدة أنه قيل بشكل خاطئ بشكل مقصود ربما، أو بشكل مبالغ به، ودعمت قولي بأمثلة وشواهد... الكل تطلع لي باستنكار، كيف تجرؤين على ذلك؟! لكنه ابتسم مشجعًا: «أنا أشكرك حقًا، فلم أكن منتبهًا لذلك، أهنئك على سعة إطلاعك». فوجئتُ حقًا بردّهِ... ثم طلب أن أراه في مكتب العميد. فكرَّتُ حينها أنه حتمًا حين يختلي بي سيوبِّخني ويسخر مني: «من أنت لتجرؤي على إهانتي، لأنكِ قرأت بعض الكتب التافهة صرتِ أكثر علمًا وثقافة؟ ليس كل ما يُقرأ صحيح، أم أنها محاولة لإثارة الانتباه لكِ؟»... كانت تلك الأفكار تتصارع في رأسي، وأنا أحاول أن أعتذر مرة وأحاججه بأخرى، فهيأت بعض الأجوبة لمثل تلك الاحتمالات... فوجئتُ به حين دخلت، يقف ليصافحني ويرحب بي: « تفضلي بالجلوس، معي عصير هل تشاركيني؟» شكرته وجلست بعد لحظات تردد... كان يحاضر في الجامعة بضع مرات بالأسبوع، قبل أن

يكون رئيسًا للحزب، ثم قلصها إلى مرة واحدة. كل الوقت كنت متشنجة وأنا أتوقع أنه سيثور بعد لحظات، ويُسمعني ما توقعت، لكنه واصل حواره بهدوء ليعبِّر عن إعجابه بمعلوماتي، وانتقد عصبيتي وانفعالي. ثم فاجأني مرة أخرى: «أنا بحاجة لمن مثلك، نريد محاسبًا ليساعد المدير في مؤسستنا، لأن مشاغله كثيرة، وكثير السفر، فما رأيك؟».

كانت تتحدث بشيءٍ من الفرح. قاطعتُها فرحًا أنا أيضًا:

- لابد أنك وافقتِ على العرض، خاصةً وأنتِ في السنة النهائية، فذلك سيجنِّبكِ متاعب البحث عن عمل.

سألتُها لأعطيها فرصة للراحة، فلابد إنها وافقت فهي تشتغل معهم منذ سنوات.

- الحقيقة لم أوافق حينها، خفتُ أن يكون ذلك فخًا أو وسيلةً لكسبي ثم للانتقام مني، بالرغم من أنهم صاروا يحاولون احتواء الكل لحزبهم... وعدتُه أن تكون مؤسستهم على رأس القائمة، بعد تخرجي... لكني صُدمتُ من الخيبة التي لقيتها. حين تخرَّجتُ قدَّمتُ لكل البنوك والمؤسسات ما عداهم، لأصطدم بواقع لم أتصوره، أنه لابد لي من معارف يقدموني للعمل! وهذا ما لمسته حين عرفت أن أغلب زملائي اشتغلوا مع أن معدلاتهم كانت أقل من الدرجة التي حصلت عليها... لذلك لم يبقَ أمامي غيرهم فاشتغلت معهم... الغريب أني لمستُ عدوانية بعض العاملين هناك، وموقفهم السلبي مني دون أن أعرف السبب، حتى الودودون معي كانوا على حذر!... فسَّرت الأمر، أنه ربما أوحى لهم بشيء ما ضدي، وبما أنه

الرئيس فلابد أن يطيعوه... ثم قيل إن إحدى الموظفات كانت تطمح بتلك الوظيفة وقدَّمت عدة مرات ولكنه رفض طلبها مع محاولة لارضائها، بأنهم بحاجة لها في القسم الذي تشتغل به، وأنه لا احد ممكن أن يحل محلها. لكن الحقيقة التي اكتشفتها متأخرًا، أنه لم يكن يثق بها، فبإمكانها التلاعب بالوثائق، لكن شعبيتها حيث كان لها جماهيرية بين الزملاء، جعلت الكل يأخذ جانبها ويقف ضدي، بالرغم من أني لم يكن لي ذنب بحرمانها من الوظيفة. ربما لأني لم أتقرب منها ولم أحاول التودد لها، فهي من النوع الذي له موهبة وقدرة للحديث بنعومة وسلاسة حتى لو كان للسخرية أو شتيمة للبعض، فتراهم يلتمون حولها كأنهم كورس ليكونوا صدىً لضحكها وتعليقاتها. ففسَّرت تجنبهم لي أو عدم تقربهم على أنه خوف من لسانها السليط، قد تستخدمهم للسخرية كما استخدمت غيرهم.

- ما اسم تلك الموظفة؟

- سعاد... لماذا، هل اسمها مهم للقضية؟

- لا، ليس مهمًا لحد الآن، المهم أنكِ اكتشفتِ أن موقفهم لم يكن له علاقة بمنصور؟

سألتها مخفيًا أن كل ما قالته، لا يدل على سبب أو دافع رئيسي لما قامت به.

- الأستاذ منصور.

قاطعتني لتصحيح ما قلتُ.

فقلتُ بشيءٍ من المزاح:

- المرحوم الأستاذ منصور.

بدا كلامي وكأنه لتذكيرها بأنها جعلت منه مرحومًا، شعرتُ بالندم لتسرعي مرةً أخرى وأنا أرى غيوم الحزن داهمت عينيها، وكأنها لم تصدِّق أن الذي حصل هو واقع وليس كابوس.

- هل حقًا ما حصل... أم هو كابوس؟ بلى كان كابوسًا قضّ مضجعي وحرمني النوم أيامًا وشهورًا.

ثم فاجأتني؛ أو بالحقيقة أفزعتني بصرخة أطلقتها. شعرتُ أن صوتها مزَّق صمت وهدوء المكان وأيقظ أشباح الظلام الذي زحف توًّا بعد مغيب الشمس. خفتُ عليها؛ خفتُ أن تكون حقًا مجنونة، ربما ارتكبتْ الجريمة بلا وعي ولا تخطيط وليس مثل ما قالت.

احتضنتُها وضممتُ رأسها لصدري:

- آسف، لم أقصد أن أثقل عليكِ، لكن لابد لنا من الوصول للحقيقة، لابد أن هناك سببًا قويًا، ربما تلك الكائنات التي اشتغلتِ معها هي السبب الذي دفعكِ لذلك، بل أنا واثق أن لهم اليد الأوسع لدفعك لذلك.

لم أكن أعرف ما أقول، كنت مرتبكًا ومتوترًا. هل حقًا هي لا تعي ما فعلت؟ لكنها قالت: «توقعتُ أن يحكموا عليَّ حالاً وإلا ما كنتُ سأسلِّم نفسي». إذن أين الخطة التي ذكرتها وكيف نجحت؟ يبدو أنني أنا الذي سأُصاب بالجنون!.

- هيا نعود للبيت، لقد تعبتِ.

اقترحتُ عليها ذلك، لكنها جلستْ مرة أخرى وكأنها لم تسمعني، أو لم تعبأ بكلامي.

- قلتُ له مرة، وقد استجمعتُ شجاعتي وقرَّرتُ أن أتحدث معه بصراحة، حتى لو كان الثمن فصلي من العمل. لابد أن يعرف أن ما يفعله خطأ، لابد أن ينبهه أحد إلى حجم وهول الجريمة التي يرتكبها بتبرير جرائم البعض أو تشجيعهم، أو على الأقل لفت انتباهه لخداع الآخر له، أو خداع الحزب له. قد يكونون هم من يستخدمونه ليجعلو منه وسيلة لارتكاب جرائم مغلفة بشعارات.

جلستُ بقُربها وهي تواصل الحديث بصوت متشنج ومخنوق ببكاء مكبوت. عاودتْ الارتعاشة فضممتُ كتفها لأمنحها بعض الدفء.

- دخلتُ ببعض الوثائق التي تحتاج لتوقيعه، فقرأها سريعًا ووقَّعها وطلب الإسراع بإرسالها. تردَّدت من الذهاب فسألتُه: «هل يمكنني الحديث معك ولو لدقائق؟» تطلع لي بابتسامة رضا على وجهه وأجابني كعادته «كل الدقائق لكِ، تفضلي». طريقته تلك أخافتني وأزعجتني، جعلتني أتردد في حوار مباشر معه، تمنيت لو يكون عصبيًا، لو يغضب من تدخلي، ربما سيشجعني ذلك لأقول له الحقيقة بلا رتوش، عن أمور ربما وصلته بشكل خاطئ أو لم يبلغه أحد عن خطورتها. كنت منفعلة وخائفة أيضًا من غضبه، مع ذلك جلست وأنا أحتضن الوثائق، حاولتُ أن أستخدم أسلوبه: لاشك أنك تعرف كم أقدِّرك وأعتز بعملي معكم، وتعرف حرصي الكبير على

المؤسسة، وقد رفضتُ عروضًا كثيرة للعمل لكني فضلت مؤسستكم دون غيرها. فابتسم فرحًا ومشجعًا لي لأواصل. فقلت بتردد: «أرى بك رجل أعمال مثاليًا، وسياسيًا ناجحًا، لكن أجدك تبالغ بما تطرحه في كتاباتك، والبيانات التي تصدرونها تشحن الشباب بكمٍّ كبير من الكراهية والحقد والغضب، أكثر مما تمنحهم من الأمل والقوة وحب الخير... أنت تعرف حجم خطورة الكلمة وعمق تأثيرها خاصة بالناس البسطاء وفي مجتمعات متخلفة مثل مجتمعاتنا، لذلك أعتقد أنه من المفروض دراسة الكلمة قبل إطلاقها، الاهتمام بتوعية الناس وتوجيههم لاحترام المُثل والقيم العُليا السامية قبل شحنهم بشعارات تزيد حجم غضبهم، فيتحولون إلى قنابل تؤذي أجسادهم ومَن حولهم وتشيع الخراب في نفوسنا وبيوتنا دون أن تمس عدونا الأول». كنتُ أتحدث بانفعال لم أتمكن من كبته. شعرت بعطش شديد وأنا أتطلع إلى كأس الماء الذي أمامه. توقفتُ عن الكلام وقد جفَّ حلقي حتى شعرت بشفاهي تلتصقان ببعضهما، تمنيت لو يمدني بكأس الماء لكنه لم يفعل مما زاد غضبي وخيبتي بضياع جهدي في الحديث إليه. فنهضتُ وأنا أقول بما يشبه الهمس: «شكرًا على إصغائك». لم أقرأ على وجهه أي أثر لانفعال أو تفكير بما قلت، بل في عينيه سخرية كمن يقول - اهتمي بعملك ولا تتدخلي بما هو أكبر منكِ - لكنه قال مبتسمًا بودٍّ: «شكرًا على ملاحظتك. أنا إنسان لي مبدأ ولن أتخلى عنه، لابد من تشجيع الناس لكراهية الذين يستغلونهم ويحاولون السيطرة على مقدراتهم» وعاد لأوراقه... ابتسمت له وأنا أودِّعه: «لأسرعْ لكي أرسل

الوثائق الآن»... كم كرهتُ نفسي وقتها، وتمنيتُ لو قلت له إنه جزء من ماكينة الاستغلال تلك، تمنيتُ لو كانت لدي الجرأة لأمزِّق الأوراق وأرميها بوجهه، تمنيتُ لو قلت له إنه استغل الحزب للشهرة والمال، وهو والحزب استغلوا عطش الناس لمن يكون جريئًا ويصرخ باسمهم، فصرخوا بهم بل وضدهم. فمهما كان دوره ضئيلاً، لكنه مؤثر، وهو ما شجَّع الكثير من الاستغلاليين لينالوا منا ويحطموا ما بقي لنا من أمل وقيم... طرفٌ استغل قهرنا وجراحنا، ليتاجر بمشاعرنا ويدفع بنا للنار، وهو يجلس على كرسي مريح وفي غُرف مكيفة، يسطر لعْناتهِ ضد الجوع والحر والتعب، وهو لم يجرب أي من ذلك، ويدعو المتعبين الجياع للركض خلف أوهام تزيدهم تعبًا وألمًا وفشلاً، ومن يتردد يتهِمونه بالخيانة والتخاذل، ليواصلوا هم تجارة الشعارات، يواصلوا تمتعهم برحلات سياحية وشهرة وغنى. فصرتُ أرى الأمر كما لو أنها معادلة، كلما زاد تعب المتعبين ازداد هؤلاء غنى وسعادة. بل أرى بعيونهم فرحًا لكل كارثة نمر بها، فأين هو المبدأ، أين الأخلاق والقيم والالتزام بها؟.. وطرف آخر استغل تلك الحالة، واستغل اندفاعنا وجهلنا لتخريب أكثر وتدمير حياتنا، بل لصفع كل أمل أو حلم بحياة فيها شيء من الإنسانية والأمل.

ضمّت وجهها بكلتا يديها وصارت تبكي ولكن بهدوء، كانت منفعلة لكن ارتعاشتها خفَّت، بل صارت تتحدث بسلاسة.

واصلنا سيرنا ببطء، وكانت كلما تتحدث عن أمر تنفعل له، تتوقف لبعض الوقت، حتى وصلنا بائع مشروبات. اشتريتُ لها عصيرًا خليطًا

من عدة أنواع من الفواكه، وزجاجة ماء لي. ارتاحت لشرب العصير وقد ارتشفته دفعةً واحدة، شعرتُ بها عطشى تمامًا ربما للجهد الذي بذلته، فاشتريت لها آخر بالرغم من اعتراضها.

- هل كان هناك من يشاركِ أفكارك، أو تلك الملاحظات؟

- هناء؛ إحدى الزميلات، الوحيدة التي قلتُ لها بعض أفكاري بعد قراءة بيان مؤتمرهم الأخير. كنتُ منفعلة وقتها لم أستطع أن أُخفي غضبي وقهري، وقد لاحظتْ اضطرابي وبكائي. كانت الوحيدة التي أشعر أنها قريبة مني، وتأملت بها صداقة كنتُ أفتقدها، لكنها اقتربت مني بالبداية، ربما لأنها كانت تحتاج مساعدتي، لكنها بعد اختلاطِها بالآخرين انسحبت هي الأخرى...

صمتت. كنتُ أودُّ لو تبقى صامتة بعض الوقت، فقد خِفتُ عليها من الاسترسال أكثر، مما قد يعرضها لتعب وإرهاق أكثر. لكنها عادت تواصل الحديث بدقة وبذاكرة بدتْ متوهجة.

- فوجئتُ يومًا بمقابلة له نشرت في أكثر من صحيفة، أعدَّها صحفي انتهازي معروف بغبائه السياسي، لا يتوانى عن ركوب أحدث الموجات وأسوأها للوصول لغايات لا تتعدى الشهرة بأي طريقة، فيظهر بكل المحطات كمحلل سياسي، ليحلِّل بطريقته البعيدة عن الصدق والمنطق أحيانا، فكانت أسئلته بذلك اللقاء فيها كل الخُبث الإعلامي لاستخراج السموم بطريقة ذكية، السموم التي يتقبلها البعض دون أن يستشعر خطورتها. وهنا يكمن الخطر؛ أن توزِّع جرعات من السموم بأواني جميلة

مزخرفة ومغرية، أن تلبس حلة الود والطيبة وتقدِّمها للكُل، بلى الكُل سيتقبَّلها بشهية ويتجرَّعها بلا تردد... تلك هي الخطورة، فأنا أرى هؤلاء أخطر من العدو الحقيقي، الذي نعرف أنه عدو ونكون حذرين من كل حركاته ونتردد في تقبل ما يقدمه، أمَّا هؤلاء فهم أعداء ولكن مغلفون بشعارات نحبها وآمنَّا بها يومًا، ليستغلها هؤلاء ويلبسوها قناعًا لنؤمِن بهم ونتقبل كل مايقضُّ مضاجعنا؛ لينامو هم منعمين هانئين بلا قلق ولا تأنيب ضمير، فهم مثل تجار المخدرات، يتاجرون بها ولكن لا يتعاطونها... صِرتُ أراه أو هو صار يزيد من استفزازه لمشاعرنا، حين صار يبجِّل ما يفعله المجرمون، حتى مِن الذين لا ينتمون لحزبه، فقط لأنهم يحملون نفس أفكارهم، مما جعل الناس حتى الذين فكروا في إدانتهم يغيرون رأيهم ويؤيدون تلك الأفعال الإجرامية الخطيرة.

حاولتُ أن أوقفها وقد شعرتُ أنها تعبت حقًا، لكنها واصلت الكلام كما لو إنها لن تتوقف أبدًا.

- صرت أشعر أنه أخطر منهم، من المجرمين أنفسهم، فالبعض يعتبره رمزًا للشهامة والصدق، فأرسلتُ له رسالة بالبريد وقَّعتها باسمٍ مستعار؛ اسم احد المعجبين به، حاولت أن أدين تصريحاته ولكن بأسلوب عتاب هادئ، حتى لا أثير نزعة العناد لديه فيلجأ للقسوة أكثر، فهو يعتبر نفسه قدوة في الذكاء والالتزام بالحق. ثم حكيتُ له بشكل فيه تهديد، من إنه حاد عن طريق الحق، وأنه بعيد عن كل المبادئ التي يدَّعي التزامها، وأن البعض يعرف عن الصفقات التجارية، وأنه ليس أكثر من تاجر لا يهمه غير

الربح وبضاعته تلك الشعارات البعيدة تمامًا عن كل ما يدَّعيه...

قاطعتُها مشيرًا لها بيدي أن تتوقف قليلاً... إذن فكَّرتْ بتهديده ولو بشكل غير مباشر، بمعنى أنها كانت منذ ذلك الوقت تخطِّط لقتله أم مـاذا؟... سجَّلتُ تلك الملاحظات في دفتري الصغير. شعرتُ بإحراج لاستيقافِها وقطع حبل استرسالِها بالحديث. اعتذرتُ لها لتواصل الحديث... تطلَّعت لي مقطبة وفي عينيها خوف أو إصرار:

- لابد أنك ترى الأمر بغير ما كنت أراه... هل بالغتُ بأفكاري؟ هل هناك نزعة شريرة في دواخلي؟ يا إلهي... أبدًا صدقني، كنتُ أريده أن يتوقف قليلاً ويتأمل تصريحاته وآراءه، والتهديد كان مجرد وسيلة لتخويفه لعل ضميره يصحى! وختمتُ طلبي بأن يخفِّف من لغة الشعارات، من لغة الكذب ودفعه المساكين للهاوية، أو على الأقل لا يدعم الجرائم التي تترصد الأبرياء... لكني لم أقرأ أي انفعال على وجهه، لم أقرأ أي بادرة على سلوكه استدل منها على قراءته الرسالة. حتى أني سمعته يكلِّم السكرتير بأن البعض يستغل أسماء معارفه ليكتب رسائل تهديد، وأنه سيحتفظ بتلك الرسائل ويسلِّمها للشرطة!. شعرت بارتياح لمعرفتي أنه قرأها، وخفتُ أيضًا من وصول الأمر للشرطة والتحقيقات، لكني تحديتُ نفسي وقلتُ حتى لو توصلوا لي سأقول كل ما فكَّرتُ فيه وأكشف نواياه. وحمدتُ الله على طباعة الرسالة وعدم كتابتها بخط اليد، ليقيني أنه سيميِّز الخط... ثم قرَّرتُ أن أبتعد عن المؤسسة، أن أقدِّم استقالتي، أعمل في أي محل للبقالة مقابل أي مبلغ فقط ليقيني من الجوع، المهم أن أكون بعيدةً عن

ذاك المستنقع الآسن، فقدَّمتُ طلبات للعمل في أماكن عدة، دون جدوى، لهذا لم أُقدم على الاستقالة وترك العمل، فلم يكن لي خيار آخر وليس هناك من يمكنني الاتكال عليه... حاصرني الشعور بالوحدة، الإحساس بالغربة والقهر، ليس هناك من أشاركه أفكاري، قد أكون أبالغ بتصوير الأمر وتضخيمه، لكن كيف أعرف ذلك وليس هناك من أفكِّر معه أو يقول لي شيئًا عنه أو عن الذي يجري... تمنيتُ لو يكون لي مبلغ من المال كافٍ لأرحل بعيدًا لمكان بعيد خال من الكذب الخطر هذا، خالٍ من الحقد القاتل هذا، خالٍ من الأوراق والأقلام! أين يوجد مثل ذلك؟ ربما في الجُزر الصغيرة غير المأهولة، أو في جزيرة الموت... الأولى صعبة المنال لمن مثلي لا مال ولا من يشجعني لذلك أو يرافقني لهناك، فلم يبقَ أمامي غير الجزيرة الثانية... بقيتُ أيامًا وشهورًا أقلِّب الأمر حتى صار أشبه بكابوس... حاولت جهدي لكي لا يؤثر ذلك على عملي فأجَّلت الكثير حتى لا أرتكب خطأ، لكي لا أبدو وكأني أعاقبهم من خلال العمل، الذي نجحت بإبعاده عن رأيي الشخصي...

علَّقتُ على كلامها وقد وجدتُ نفسي محرجًا من الصمت إزاء استرسالها بحديث سلس، كان عليها أن تدرس القانون بدل الحسابات.

- فعلاً، لقد ذكروا أنهم لم يجدوا أي تقصير في قسم الحسابات ولم يجدوا أي تلاعب كما توقعوا.

ثم سألتُها بقلق:

- ماذا عنيتِ بجزيرة الموت، هل فكَّرتِ حينها بقتله؟

- لا، لا... أبدًا، لم يخطر هذا الأمر ببالي، بل فكَّرتُ... فكَّرتُ أن أنتحر حينها، أضع نهاية للحيرة والخواء الذي عشته، فقد صارت لدي قناعة أنه لا طريق للخلاص غير ذلك، فما أنا إلا موظفة بسيطة، بلا أصدقاء، لا أحد يشاركها الرأي بأي موضوع، فلا مكان لي للعب دور المصلح السياسي أو الاجتماعي، من أنا لكي أفكِّر بذلك؟... هكذا كنتُ أقرأ بنظراته، وهو الوحيد الذي كلَّمته بالأمر كما قلتُ لك...وضعتُ سيناريوهات عديدة لكيفية تنفيذ تلك الخطة، لم أشأ أن أترك للبعض الفرصة للنيل مني بعد موتي، أو لاستغلال الحدث لعقد جلسات نميمة يحلِّلون فيها شخصيتي أو أسباب موتي، وقد يتندرون عليَّ كما تندروا على كل حركة أو كلمة مني في حياتي!... خِفتُ أن يمنحهم موتي الفرح ليكرزون (من كرزات) موضوعي مع شرابهم... لذلك أخذت سلفة كبيرة من البنك لأسافر، لم أقرِّر إلى أين، المهم لمكان قريب من البحر... لم أخبر أحدًا عن مشروع السفر، عرفوا أني أخذت إجازة طويلة، فلم آخذ إجازة لمثل تلك المدة طوال فترة اشتغالي... على العموم ليس هناك من أُشركه بفكرتي، غير صاحبة البيت التي أستأجر منها الشقة، وقد أهديتها بعض ما اقتنيته ليبقى معها ذكرى في حالة عدم عودتي.

- لكننا حاولنا الاتصال بها، لم يكن هناك أحد.

- بلى، لقد اشتريتُ لها بطاقة لزيارة ابنتها التي تعمل بالخارج، لتسافر قبلي بيوم، لم يكن مقصودًا، بل رغبت أن نذهب معًا، على الأقل يكون هناك من يودِّعني... لكن القدر خطَّط لذلك ربما.

أشاحت بوجهها تتأمل المكان، وصارت تقضم شفتها السفلى لتمنع نفسها من البكاء ربما! أو أنها ترى أمامها خطتها تلك تتحطم على صخرة القدر الذي تتهمه بتنفيذ ما قامت به.

وضعتُ يدي على كتفها لنواصل السير، فواصلتْ الحديث دون أن تتطلع إلي.

- طوال تلك الأيام لم أذق طعم النوم الهنيء، أقضي الليل كله مستيقظة أو تنخزني الأفكار؛ نوقظني من عز النوم... في يوم سفري استيقظتُ فجرًا مع أن موعد الطائرة كان مساءً، وبعد نوم متقطع... لكني أحببت أن أدور في المدينة لأودعها ربما، أو أتمشى بالمطار براحتي بلا ركض أو استعجال. لم تكن معي حقائب، ما جدواها، وأنا أفكِّر بالرحيل نهائيًا؟ لقد وزَّعتُ كل ملابسي ومقتنياتي على الجمعيات الخيرية، فلم آخذ معي غير بضعة قمصان وملابس بسيطة وضعتها بحقيبة صغيرة، وسِرتُ الطريق لمحطة القطار التي تبعد مسافة نصف ساعة بالباص. سِرتُ وأنا أتأمل الشوارع والناس والزحام، وكأني أراها لأول مرة، لم تضايقني ككل يوم، عمارات وبنايات عالية، ليس لي بينها مكان يخصني، جموع تتدافع تسير لأهدافها ليس لي بينهم من أودعه، فما الذي لي في هذه الدنيا... وكنت على قناعة إن الدنيا الأخرى إن وُجِدتْ، سيكون نصيبي بها كهذه ربما، ولكن لم يعد لي قدرة للاحتمال.

صمتت وهي تبلِّل شفتيها ببعضهما وتتطلع للنهر، اغرورقت عيناها بالدموع، لكنها واصلت السير بشرود... أعطيتها قنينة الماء، مازال بها ما

يروي العطش. شكرتني بهمس وشربتها كلها، لكنها بقيت تحتفظ بالقنينة البلاستيكية تعتصرها بين كفيها.

- جلستُ في أحد المقاهي لأشرب كوب شاي مع قطعة كيك، فقد كنتُ جائعة، شاهدت مع القليل من الزبائن المتواجدين هناك أخبار القتل وجثث الضحايا تتناثر وكأنها ليست لبشر كانوا منذ لحظات عامرين بالأمل ويخططون للغد. الغضب والألم مرسوم أو محفور على وجوه الكل، أكثر من الخوف، وفي العيون والشفاه سؤال مدوي (لماذا؟). بكيت بصمت وتحولتْ صرخاتي وأنا اكتمها لدبابيس تنخز جبيني وحنجرتي، تجبرني على الصراخ مثلهم (لماذا؟)... ثم شدتني صورته وهو يحلِّل أو يعلِّق على تلك الأخبار. لم أعِ أي معنى مما كان يقوله، فلم يقل كلمة واحدة فيها إدانة للقتلة، بل صار يبرِّر لهم، لا على إنهم مجانين، بل من حقهم فعل ذلك للضيم الذي وقع عليهم، مما استفزَّ الصحفي الذي قابله أيضًا: «الضحايا أبرياء ولا علاقة لهم بكل ما يجري، بل هم من وقع عليهم الضيم أكثر، أليس من المفروض العمل معًا لوضع حد لمعاناتهم بدلاً من قتلهم؟»... لكنه صار يحكي بحماس عن المعركة ومثل كل المعارك الشريفة لابد أن يكون هناك ضحايا أبرياء، لكنها بداية لهزيمة الأعداء!

توقفتْ وأدارت وجهها تقابلني، تتطلع إلي باكية وعلى وشك الصراخ:

- أعداء؟ لماذا لم يقتلوا الأعداء؟... لماذا؟ نقتل أبناءنا لنهزم الأعداء؟! ندمِّر دارنا وحياتنا لندين الأعداء؟!... لم يكن تخريفًا ولا جنونًا ولا غباءً، بل هو تحريض للقتل أكثر، ودفع للهاوية... وقفتُ لا أدري ما يمكن أن

أفعله، رميتُ الكوب على الأرض لتمتص شظاياه بعضًا من غضبي... لا يمكنني أن أحكي عن تلك اللحظة...

تلاشى صوتها، رمت قنينة الماء الفارغة بعصبية وغطَّت وجهها بكفيها لتبكي بصوتٍ عالٍ.

احتضنتُها، كان جسدها يرتعش، فهمستُ لها:

- لنعد الآن، لقد تعبتِ

التفتت لي بخوف...

- أعرف أنني سأموت، وليقولوا ما يقولون عن سبب قتله، لكن أنا واثقة أنك ستوصِّل لهم الحقيقة، سيفهمون يومًا، ربما ذاك اليوم بعيد، لكنهم سيفهمون أني لم أكن مجنونة، بقدر ماهو لم يكن مثل ما جعلهم يعتقدون... لم تكن مشاعر غضب تلك، بل براكين تغلي لتحرق كل تفكير، فأسرعتُ لصاحب المقهى أعتذر عن كسر الكوب: «كنتُ منفعلة لأني سأسافر، دائمًا أكون عصبية في السفر». فأجابني مبتسمًا: «لا عليكِ ليس مهمًا». أعطيته مبلغ تعويض عمَّا كُسر، رفض في البداية، لكنه وافق امام إصراري. ثم سألته بتوسل، أن يدلني على أحدٍ يبيعني مسدسًا! لأني احتاجه بسفري وأنا لوحدي ولا بد من وسيلة لحماية نفسي... تردَّد لحظات وطلب أن أمُر عليه بعد أيام، سيسأل صديقًا له. ألححتُ عليه وعرضتً مبلغًا كبيرًا ليتصل بصديقه الآن وسأذهب له حيث يكون. كنتُ أريد أن أنجز الأمر بسرعة؛ ليس لأنني على سفر، بل خوف من أن أغيِّر رأيي، أن يبرد

غضبي، وأندم ما تبقى لي من أيام... فاشتريتُ السلاح الذي وجدتموه هناك، فقد قرَّرتُ أن أعمل شيئًا قبل الرحيل، لا يمكن أن أرحل في صمت وتبقى تلك الأبواق وحدها تصيح عاليًا، تملَّكتني فكرة، أن أخرس أحدها على الأقل، لعلهم يتساءلون ويكبر السؤال ليصلوا لحقيقة خداعهم واستغفالهم... كبرتْ الفكرة برأسي ككرة الثلج، كالنار في هشيم ولا قطرة ماء لإطفائها... لابد أن أنفِّذها قبل السفر، ولم يبقَ على موعد السفر سوى ساعات. ربما أطير قبل اكتشاف الأمر، سأقفل الباب خلفه، المهم أن أجده، أعرف أنه يعود للمكتب مساءً ولن يكون هناك أي من الموظفين غير الاستعلامات في بعض الأحيان والحارس الذي يغلق الأبواب ويذهب هو الآخر... عرفتُ يومها أن حالة السُّكر قد تكون من انفعال ما وليس من شُرب الخمر فقط، والبعض يفقد وعيه لا بسبب الخمر فقط بل هناك الغضب أو الفرح، يجعل المرء يتصرف بلا إرادة أو تخطيط. بحالتي أعتقد إن الغضب والحزن جعلاني لا أرى غير السلاح الذي كنتُ أحمله لأول مرة وسيلتي لإنقاذ البشرية! هههههه... أنقذها من صوتٍ لا يمكن إسكاته إلا بذلك المسدس! شرحوا لي كيفية استخدامه، وقد جرَّبته أمامهم بيدٍّ مرتعشة، فسَّروا ارتعاشتي بأنها خوفي من السلاح وأنا أمسك به لأول مرة... ثم وجدتُ نفسي أُسرع للقطار الذي يأخذني للمكتب، شيء ما صار يدفع بي، وإن تردَّدتُ؛ يسحبني... شربتُ قارورة الماء لأهدأ قليلاً، كان المكتب هادئًا، خرج معظم الموظفين ولم يبقَ إلا القليل... «جئتُ لأودِّع الدكتور» قلتُ لموظف الاستعلامات وطلبتُ منه أن لا يحوِّل أي مكالمة له لحين

خروجي، ووعدتُه بهدية حين أعود... الحقيقة لا أذكر إن كنتُ قلتُ ذلك أم هي مجرد نوايا أو أوهام مرَّت ضمن الخطط التي تضاربت بذهني في تلك اللحظات... ضحك وهو يرفع رأسه عن الأوراق التي كان مشغولاً بها: «هل حقًا ستسافرين اليوم؟ تمتَّعي بالسفر أنتِ تستحقين هذه الإجازة فالإرهاق والتعب بادٍ عليكِ. خذي الأمور ببساطة، الحياة ليست بالجدية التي تتصورين» هذا ما أذكره من كلامٍ كثير قاله... حاولتُ أن أغلق أذني عنه لئلا أغيِّر رأيي ويخرِّب خطتي... جلستُ على الأريكة، واحتضنتُ إحدى الوسائد الموضوعة بزواياها، وقلتُ بصوتٍ مخنوق: «لقد سمعتُ تعليقك على الأخبار» لم أقدر أن أكمل الجملة خوفًا من أن أنهار بنوبة بكاء وصراخ... فوجئتُ به يجلس بجانبي، وأنا أحتضن الوسادة، ربما لاحظ ارتعاشة جسدي، كنتُ أرتعش كسعفةٍ تهزها ريح عاتية، فقال: «بلى إنها مأساة حقًا، هناك شيء من الفوضى والتخلف، المهم لا عليكِ، اذهبي أنتِ وارتاحي، لا تفكِّري بهذه الأمور، لا تشغلي رأسك الجميل بها، تمتعي بشبابك»... فقلتُ بصوتٍ مشحونٍ بالأسى: «لكنك لم تقل ذلك هناك، بل برَّرت للقتلة وقمت بتحيتهم»... نظر لي بسخرية وشيء من الغضب لتدخلي بما لا يعنيني: «أنا مشغول الآن، سنحكي بالأمر حين تعودين من السفر، هناك أشياء تجهلينها»... ثم عاد إلى كرسيه خلف المكتب: «أنا مشغول بموضوع لابد من إرساله للصحيفة اليوم»... أخرجتُ المسدس من الحقيبة وخبَّأته خلف الوسادة واقتربتُ منه، فقام معتقدًا أني أريد مصافحته فمدَّ يده... لا أذكر ما حصل أو ماذا قلت، لكني أذكر أني همستُ

بصوتٍ مرتعش أو ربما تمنيتُ أن أقول: «سأرحل، ولكن لابد أن أنظِّف الجو من بعض الكذب، لابد أن تدفع ثمن قتلك العشرات من الأبرياء الذين راحوا اليوم أو من قَبل»... لم أتطلع لوجهه، خفتُ أن يستفزني أو أتردَّد، أغمضت عينيَّ، ومن خلف الوسادة أطلقتُ الرصاصات على صدره أو بطنه لا أذكر... لم أستطع التوقف أطلقتُ كل الرصاصات ورميت كل شيء وهربت... لم أرَ أحدا بالباب، لكني سمعت صوت الحارس وأنا أبتعد، لم يصلني ما كان يقول... ركضتُ حتى وصلت شارعًا فرعيًا فواصلتُ ركضي بلا اتجاه... ما الذي سأفعله الآن؟ بل ماذا فعلت؟ تدينين القتل وتقتلين؟... ثم جلستُ على الأرض، لم تكن معي حقيبتي، لابد أني نسيتها هناك أو ربما مع بائع المسدس. صوتٌ يصرخ بي: «ما الفرق بينكِ وبين أولئك القتلة؟» ولكن صوت آخر أقنعني: «أنتِ قتلت بسبب، أما أولئك فقتلوا المئات بلا سبب»... هل يشفع لي أني أردت الانتقام للأبرياء من واحد من مئات أو آلاف ممن يقفون خلف تلك الجرائم، جرائم التخلف والتردي... ولكن لماذا لم أنتحر؟ لماذ لم أنفِّذ ما فكَّرتُ به قبل؟... رميتُ المسدس حينها كما لو إنه أفعى تكاد تلدغني، ولا أدري إن بقيتْ بعض الطلقات أم لا... يا إلهي لقد أفرغتها كلها في جسده!

عادت تبكي من جديد. لكني لم أعلِّق، بقيتُ صامتًا حتى لا أقطع سلسلة أفكارها التي تداعت بشكل متسارع لم أتوقعه...

- ليته أصغى لي، ليته فكَّر بما قلتُ له، لكنه لم يفعل، تجاهلني تمامًا، مع أني حاولت أن أُجنِّبه الكراهية، أُجنِّبه الضغينة... بلى كنت أحبه، حُب

صديق أفتقده أو أخ حُرمتُ منه، أنا التي خلقت تلك الصورة له... لكنه لم يصغِ، بل سخر مني، بلى كنت أرى سخريته بعينيه اللتين لا تجيدان الكذب مثله، مثل لسانه... بعدها ركضتُ وكأني أهرب من ذلك الكابوس، ركضتُ وكأن قدميّ ليست لي، لم تتأثر بالتعب والجوع، بالخوف أو بالرعب الذي شعرته كلما استعدتُ صورة المكتب، صورته وهو يمد يده ليصافحني، كما لو أراد طردي ليتفرغ للبيان أو المقال الذي كان يسطره، لم أرَ ما حصل بعدها فقد أغمضتُ عينيَّ وركضتُ، لم أفتحهما إلا حين أصبحت خارج المبنى... هكذا قادتني قدماي لأول مركز شرطة صادفني، هناك انهارتْ قواي وصرخت: «قتلتُه، نعم قتلته، لأنه لم يسمع ندائي؛ نداء الضمير، أردتُ أن أنقذ ما تبقى... وأغمي عليَّ بعدها... حين أفقتُ قادني شرطيٌّ لغرفة الضابط، تلاشت قدرتي على المشي، تصورتُ أن ذاك الضابط سيحسم الأمر، يحكمون علي ويقتلونني، قد يقدِّرون دوافعي ويسامحونني بعد قتلي، لكنهم لم يفعلوا، استمعوا لقصتي مراتٍ ومرات حتى صِرتُ كلما سألوني أتقيأ، فصممت أن لا أقول شيئًا... وبعد يوم أو اثنين لمحتُ صورته بالصحف وصورتي أيضًا صغيرة في أسفل الصفحة، لم أجرؤ على قراءة ما هو مكتوب، ولا أظنهم يسمحون لي بقراءتها... كان كل يوم يمرُّ يقربني من الجنون، ما الذي سأقوله؟ من يسمع؟ هل من المعقول أن أحظى بمن يسمعني؟ لمحتُ الغضب في عيون الزملاء، لمحتُ الكراهية وهم يتزاحمون مع الصحفيين والمصورين يحاولون الوصول لي لضربي أو إهانتي، خاصةً أولئك الذين وجدوا بذلك فرصة من السماء لينالوا مني.

اتكأتْ وأرخت رأسها للخلف، لقد بان عليها التعب والإرهاق، شعرتُ بتأنيب الضمير لتسببي بتعبها هذا، وبنفس الوقت شعرت بارتياح وهي تفرغ وعاء غضبها وألمها.

أغمضتْ عينيها وتركت الدموع تنساب هاربة وهي عاجزة عن رفع يدها لمسحها. تأملتُها وأنا أنظر للأوراق التي جلبتُها معي، خططت عليها (سهر، تعب إرهاق قلة نوم، كلها مقدمات أو مسببات لحالة انهيار عصبي)... قد تنفع كأرضية للدفاع عنها. مشاهد القتل والجرائم والتفجيرات والحرب والقصف، مع الزعيق الإعلامي الذي يتلاعب بمشاعر الناس، كلها مسببات، وتدفع أي إنسان لارتكاب أعمال غير مسؤولة، خاصة إذا كان الشخص مرهف الحواس، معزول عن المجتمع بمحيط كله نفاق وخداع، لابد أن ذلك جعلها ترى الأمور بطريقة تختلف عما يراه الآخرون.

كلاهما ضحية، هو ضحية الشهرة ونفاق المصفقين والمهللين لكل ما يقول، مما جعله ينسى المبادئ ويطلب المزيد، كالذي يشرب الخمر يتضايق من طعمها في البداية ويتجرعه بصعوبة، لكنه بعدها يطلب المزيد والمزيد حتى يصل لمرحلة لم يعد يشعر بأي طعم سوى الرغبة بالمواصلة لارتشاف المزيد.

أخذتُها من يدها لنعود للبيت، فقد أُرهق كلانا، خاصةً هي، لكن لا بأس فلابد أنها ستنام اليوم بشكل لم تعرفه منذ أيام أو شهور حسب ما قالت، بعد أن نفضت عنها بعض ما كان يجثم على صدرها كصخرة ثقيلة.

لم تتطلع لي، لم تتساءل ما الذي سيحصل؟ هل هناك أمل أم لا؟ كانت

واثقة من يأسها، لا تنتظر عقابًا أخفّ من الموت. لكني كنت متفائلاً، أكاد أرى عيون الإدعاء والأصدقاء تؤيد حِججي ويتعاطفون معها. وراح بي الأمل بعيدًا أن أحصل لها على البراءة! فاستعجلتُ العودة لوضع خطوط للمرافعة التي سأقدِّمها للمحكمة، وإن مازال الوقت مبكرًا لذلك، أمامنا وقت طويل للحديث مع الشهود، والتوصل للأقرباء وزملاء الجامعة وغيرهم.

• • • •

لم أنمْ ليلتها، بل واصلتُ الكتابة، سطرتُ عدة صفحات ورحتُ أتخيل نفسي أترافع بالمحكمة، والصحفيون يسجِّلونها كاملة وتعرضها بعض المحطات التلفزيونية، بل سيعرض عليَّ بعض الناشرين الآلاف لنشرها في كتاب. وربما يتقاطر المخرجون بعروضهم المغرية للاستفادة منها في أفلامهم.

لم ينقذني من السُّكر بخمر تلك الأحلام أو الغرق في بحر الأوهام سوى النوم.

صحوت فزِعًا، إثر شعاع اخترق فتحة الستارة... هل كنتُ أحلم؟ لا أذكر الحلم ولكن تراءى لي أنها كانت تمثِّل علي، وقد هربتْ فأتعرض لتهمة تهريبها. ربما هو الخوف من تلك الفكرة التي راودتني رغم استنكاري لها وإبعادها.

اندفعتُ راكضًا لغرفة أمي حيث تشاركها هدى، لكني توقفت بالصالة وقد وجدتهما ترتشفان الشاي وتتهامسان.

- خير، هل تأخرت عن العمل؟ لم أشأ أن أوقظك وقد لاحظتُ أنك نمتَ متأخرًا بالأمس؟...

تساءلت أمي بقلق.

- صباح الخير، أو مساء الخير.

- هدى أصرَّت أن لا تتناول إفطارها حتى تستيقظ أنت، ذنبها على جنبها سيكون افطاركما غداء.

- ما كان يجب أن تنتظريني... هل نمتِ جيدًا؟

سألتُ هدى وأنا تطلع لامرأة جديدة، لا أرى أثرًا لليلة أمس.

اكتفتْ بابتسامة وهي تهز رأسها بالإيجاب، لم تنطق بكلمة، ربما هو تعب الأمس، أو أنها قرَّرت العودة لصمتها من جديد.

سألتُ أمي إن كانت قد عرفتْ عنها شيئًا من خلال حوارها معها....

- كل الوقت كنتُ أنا الذي أتحدث عن طفولتك وتفوقك بالدراسة، اِكتفتْ هي بالحديث عن دراستها وأنها لم ترغب بدراسة الحسابات أو الإدارة، لكنها أُجبرتْ على ذلك، بعد أن صارت معظم الجامعات مغلقة لأعضاء الحزب الحاكم.

لم تكن تأكل بل تتأمل الطعام وكأنها تحاول استكشاف ما يختبئ هناك، ثم صارت تتحدث كما لو كانت تكلِّم نفسها.

- لم أكن أحلم، أو لم تكن أحلامي كبيرة: بيت صغير، أعود من العمل مع إنسان ينتظرني على باب المؤسسة لنعود معًا، نتعشى ثم نتشاجر على من يغسل الصحون، أهدِّده ويستسلم، ثم نشاهد التلفزيون أو نخرج نتمشى قرب النهر أو نذهب لزيارة أصدقائه، هو من الذين لهم شعبية ولديه عدة أصدقاء سيصبحون أصدقاء لي أيضًا، يعوضونني حرماني من الصداقة التي أحلم بها... ثم قلَّصتُ أحلامي واختصرتها في أن يكون لي صديق أو صديقة نتبادل الآراء لأكتشف خطأي أو أقنعهم بوجهة نظري، قد نختلف لكن نواصل المودة، نخرج معًا نشرب الشاي أو نسهر في بيت

أحدنا... لم أحلم بالوصول إلى مراتب وظيفية عُليا، لم أحلم أن أشتري بيتًا... قلَّصنا أحلامنا فتضاءلت وانكمشت وصغرت لحدود أن نأكل لقمتنا بأمان، أن نسير في الشارع دون خوف من الأرض، قد تتفجر تحت أقدامنا وننزلق للهاوية مبعثرين، أن نعود للبيت قطعة واحدة بلا كسور ولا رضوض ولا طعنات مزروعة بالظهر أو بالصدر... حتى التلفزيون صار مرعبًا ولم نجد فيه التسلية التي نفتقدها... تبعثر كل شيء فقلنا لا بأس عسى أن يكون القادم أحسن، وإذا بالقادم يأتينا مسلحًا بكل الحقد والقسوة، لنتحسر على خيبات الأمس! لم يكتفِ بما تبعثر من أحلامنا، من آمالنا، من سنين عمرنا. بل صار يبعثر ذكرياتنا، أطفالنا، يبعثر أجسادنا، ويصرخ بنا أنه يفعل ذلك من أجلنا، من أجل القيم والمبادئ، من أجل هويتنا، من أجل الوطن!... ما قيمة الوطن بلا أطفال يلعبون بحدائق نظيفة، يلعبون مع أقرانهم دون خوف، دون كوابيس، دون حقد أو غضب... ما قيمة وطن تُغْسل شوارعه الوسخة المغبرة بدماء أبنائه وبلا سبب... ما قيمة المبادئ أو القيم إن لم تكن في صالحنا وصالح الأطفال؟ ما قيمتها إذا كانت تستبيح قتل الأبرياء، ومن أجل شعار يحمله تافه موتور، أو متهور جبان؟

كنا نصغي لها بصمت وقلق، لكنها فاجأتنا وهي تهب واقفة وتصرخ عاليًا. فأشرتُ لأمي أن تتركها وتذهب للمطبخ. لم يخفِّف صراخها من حِدة الغضب فضربتْ الحائط بكفها بقوة، وصرختْ عاليًا، هذه المرة ألمًا.

ركضتُ أمسكها، فاكتشفتُ كسر أحد أصابعها. هرعتْ أمي لي ببعض الضمادات، وقد رفضتْ أن تذهب للمستشفى أو طلب الدكتور أو حتى

إبلاغ الشرطي الذي يراقب بيتنا من بعيد ليتأكد من عدم هروبها.

- ما قيمة إصبعي؟... هل سيؤثر على عملية الحكم بالإعدام؟... هل يؤجلون الموت بإصبع مكسور؟

همستْ ساخرة وبصوت متقطع والألم يلّون وجهها بألوان تتغير تباعًا.

- فكّري بالموت ما شئتِ، لن أحاججك، ولكن على الأقل اقضِ ما تبقى لك من الأيام بلا أوجاع أو آلام أنتِ في غنى عنها.

يبدو أن صراخها أثار حفيظة الشرطي فصار يطرق الباب بهستيرية، واندفع داخلاً دون أن ينتبه لأمي. فأسرعتُ له أهدِّئ من روعه.

- إنها بخير، فقط حزينة وخائفة من العقاب، ربما لأنها لم تكن بوعيها.

شعرت بإرهاق وتعب في إقناعه بالذهاب.

أخذتني أمي جانبًا وهمست بعصبية وقلق:

- ابني، مالك وهذه المشكلة، إحنا ناقصين؟... لقد ثبت الآن أن المسكينة حقًا مجنونة، واضح ذلك من كلامها وطريقة حديثها. المسألة واضحة ومحسومة أنها ارتكبت الجريمة بلا وعي، في حالة جنون فجائي... الأفضل أن تعيدها للمعتقل لحين المحاكمة وريّح بالك.

فأشرتُ لها أن تخفض صوتها...

- ما الجنون في كلامها؟ إنها عاطفية وتنظر للأمور بشكل أكثر حماسًا وبحساسية زائدة ربما... ثم هل تعتقدين إن الأمر بصالحها لو أثبتنا أنها مجنونة؟ سيرمونها في مستشفى للمجانين لتتعرض هناك للتعذيب

الجسدي والنفسي لتتحول إلى مجنونة فعلاً.

ثم اعتذرتُ لها:

- آسف لم أقصد أن أسبِّب لكِ قلقًا أو إزعاجًا، احتمليها ليوم آخر فقط، وستعود لمكانها.

ذهبتْ أمي للمطبخ قلقة وعصبية ولم أسمع تعليقها. أحضرتْ بعض الشاش وزيت الزيتون دهنت به إصبع هدى، ثم وضعتْ خشبة صغيرة وربطتها على الإصبع المكسور وضمدَّتْ يدها كلها، وأعطتها شاي أعشاب لتهدئها.

- أنا آسفة، أرجوكِ يا خالة سامحيني... ربما ما تقولينه صحيح، لابد أن أكون مجنونة، لا تفسير لما حصل غير ذلك. كان بإمكاني التجاوب معهم، أن أمثِّل، أخفي مشاعري، لكني حاولت ذلك، صدقوني حاولت... فضحكوا مني! ربما بدوتُ كالمهرج بثوب قد يكون ضيقًا جدًا أو فضفاضًا لا يليق بي.

بعد لحظات صمت التفتتْ لي، كانت شاحبة تمامًا:

- لا تتعب نفسك صدقني، لن يفيد حتى لو آمنتَ بي وصدَّقتَ دوافعي، لن ينفعني بشيء... دعهم يحاكمونني، ستكون أسرع بلا محامي مخلص وشاطر مثلك... وهذا ما أريد، أن تكون أسرع، وتنتهي هذه المسرحية المرعبة... ما جدوى أن يصدِّقوني؟... وحتى لو حصلتْ معجزة وطلعتُ براءة، بلا لجوء لحالة الجنون، بل لنفرض، لأنهم اكتشفوا أني على حق، وأن ذلك الرجل المسكين يستحق القتل، وأطلقوا سراحي... ماذا بعد؟

أعود للشوارع ذاتها؟ الشوارع التي زُرِعتْ حقدًا وكراهيةً وقتلاً، وعلى مستوى يومي... شوارع مزروعة بناس لا يطيق أحدهم الآخر... الحب خيال، والعطف محال، لا يقدرون عليه وسط عواصف العدوانية والبغض... القيم والمبادئ صارت سلعة سهلة للتجارة، للربح السريع... لقد رأيت كيف استغلوا صورة جيفارا لسلعة تجارية، تلك الأيقونة المقدسة لمعاني التضحية والبطولة، صارت سلعة مثل صور المطربين والممثلين، البعض يلبس «التي- شرت» مطبوعة عليها صورة ذلك الإنسان المثالي، وهو لا يعرف عنه شيئًا غير أنه رجل مشهور وجميل أو وسيم! بلى هناك من يعرفه ويقدِّره، ولكن هؤلاء من الشباب النادرين ندرة الألماس في حي المساكين... فما الذي سأجده في تلك الشوارع؟ خاصةً بعد الذي حصل... حينها سأصاب فعلاً بالجنون، إذا لم أكن مجنونة حقًا.

حاولتُ تهدئتها لترتاح قليلاً. فتوقفتْ عن الكلام وقد ابيضَّتْ شفتاها عطشًا ربما أو ألمًا، وصار وجهها مكفهرًا بلون الليمون، ولاحت بوادر إغماء. أحطْتُ كتفها بذراعي وأعطيتها كأس ماء وقد انسحبت أمي للمطبخ.

- ما هذا اليأس؟ ليست الأوضاع بالسوء والكابوسية التي ترينها... أنتِ شابة جميلة وموظفة ناجحة، وهناك زوايا عديدة بالحياة جميلة وتستحق أن تُعاش.

قلتُ ذلك وفكري مشغول تمامًا بما يمكن أن أفعله معها. بالأمس كنت فرحًا وكان الأمل كبيرًا، لكنها اليوم أحبطت كل رجاء.

- أنا أشكرك حقًا على صبرك معي وثقتك بي، بل وجلبك لي هنا دون

أن يراودك خوف أو شك... لا أريد أن أسبِّب لكم متاعب أنتم في غنى عنها... الموضوع متشعّب ومعقَّد.

أجلستها بجانبي وأخذت كفها السليم بين يدي، كان دافئًا، بالأحرى كان ساخنًا، لابد أنها محمومة، قد يكون التهابًا بيدها المتضررة...

- ليس هناك أي مشاكل، المهم أنتِ، لابد أن تؤمني بي وبكِ، تثقين بي مثل ثقتي بكِ... عندي إيمان قوي أنكِ ستنالين عطف الناس ويتضامنون معكِ، وهذا ما سيجبر المحكمة على تخفيف الحكم... لابد أن هناك من سيرى بعملكِ بطولة وتضحية من أجلهم... هكذا أراها أنا، كذلك زميلي وصديقي جبار الذي وعد أن يساعدني، لديه خبرة أكبر، وهو الذي اقترح عليّ قضيتك.

انحنتْ على يدي وقبَّلتْها! شعرتُ كما الصدمة الكهربائية، لكنها صدمة لذيذة... انحنيتُ بدوري لأقبِّل رأسها.

نهضتْ لتقف بجانب الشباك تتطلع من بين فتحات الستارة، يدها السليمة تحتضن الأخرى، لابد أنها موجوعة، فكرَّتُ أن أشتري لها حبوبًا مُسكِّنة.

- لو كنتُ احتفظتُ بنسخ الوثائق لتكون دليلاً على ما أقول، لسهل الأمر بعض الشيء. لكن الموضوع متشعب ومعقَّد وبلا أُفق لأي انفراج.

- أي وثائق؟ هل ممكن أن توضحي؟... مهلاً...

استوقفتُها لأطلب من أمي أن ترسل أحدًا ما ليشتري بعض الحبوب

المهدئة، وإذا لم تقدر تسأل ابن جارنا الطبيب ليكتب لها وصفة وتقول إنها لي.

عدتُ لها بلهفة أستحثها لتخبرني عن تلك الوثائق أو المستندات... فقالت بحماس مشوب بخيبة:

- صفقات وعلاقات مع بعض المجرمين وعصابات المخرِّبين الذين يلبسون أقنعة شتَّى يخدعون البسطاء والمساكين، وحتى مع بعضٍ من يدينهم!... لكني وقتها فكرَّتُ؛ لو أخذتُ نسخًا من تلك الرسائل والعقود، قد تُعتبَر خيانة للأمانة، خيانة للعمل.

- لا يهم... المهم أنها موجودة وأنتِ اطلعتِ عليها... يمكن أن نفتِّش مكتبه والبيت وحتى بعض من لهم صلة به للحصول على بعضها.

كنتُ منفعلاً كما لو أنني حقًا حظيتُ بالمفتاح الذي كنتُ أبحث عنه.

- صحيح؟... هل من الممكن الحصول عليها؟... ستكون معجزة حقًا... مدير القسم هو المسؤول عنها واطلعتُ عليها صدفة في بعض الملفات التي تركها بالمكتب يومًا. عرفت أنه نسيها لأنه اتصل بي بعد لحظات من تركه المكتب بإحدى رحلاته ليتأكد أنها هناك، وطلب أن أسلِّمها للأستاذ منصور في الحال. هو يعرف حرصي على تنفيذ الأوامر بلا تردد... لكن الفضول دفعني فصرت أقلِّبها لأعرف أهميتها، فكانت صدمة!... حجم الاستغلال الذي عرفته، استغلال للمساكين الذين يعانون الحرمان من الأمل والقيم التي آمنوا بها، لتستغل حالة القحط هذه والجدب تلك، يقودونهم

ويدفعونهم للهاوية مثل الخرفان التي يدفعها كلب حراسة مجنون للمنحدر الذي فيه هلاكها، فتندفع مستسلمة وراضية.

عاودتْها ملامح الخيبة والقنوط، ربما هو الألم تحاول تخفيه أو تسيطر عليه...

هل هي حقًا مجنونة؟ انتابني خوف بالرغم من ثقتي بأنها أكثرنا عقلاً. كل ما ذكَرتْه فيه صدق وألم ومشاعر صادقة. استعدت فرحها بالأمس وهي تمسك بيدي وفرحها لمنظر النهر... للحظة تخيلتُ أنها أحبتني، أو تخيلتُ إمكانية حبي لها، ربما لأنني الوحيد الذي صارت تراه في صحراء عالمها. لكنني حاولت أن أركز اهتمامي على قضيتها، فلم أشأ أن أكذب عليها وأسبب لها صدمة.

حقًا لا أريد أن أكذب عليكم، فالقضية هي شاغلي الأول ولأهميتها، طمحتُ أن أنال بعض النجاح والشهرة، حتى لو خسرت ولم أحقق ما أسعى إليه، أي إذا لم أحصل لها على براءة... لكني واثق من الحصول على حُكم مخفف.

لماذا تريدونني أن أكذب وأدعي أن سبب حماسي للقضية هو الوصول إلى الحقيقة والالتزام بالمبادئ والقيم الإنسانية فقط؟ بلى هذا هو دافعي الأول، لكن لا يمنع أن أحلم بالسعادة التي يحققها النجاح والشهرة، اتحدَّ الهدفان أو السببان ليكونا معي في تبني هذه القضية. من منكم لا يسعى لذلك؟ لا توجد سعادة مع الفشل والخيبة أو العزلة والحرمان.

ربما هي أيضًا، بعد المعاناة من الوحدة والعزلة، دفعها عقلها الباطني لعمل شيء كبير وخطير، لتحقيق بعض الشهرة!

ما هذا الذي تخرِّف به؟! أي شهرة وأي سعادة وهي تعاني وكانت مصممة أن تموت دون أن تقول شيئًا؟ بل هي طوال الوقت تحكي عنه باحترام وندم لأنه لم يصغ لكلامها الذي كانت تقوله له بدافع من حبها وإخلاصها له. ثم فكرت بخيبة انه مجرد كلام غير مدعوم بشواهد... وماذا عن تلك الوثائق؟ أنها الأمل الوحيد ربما.

ألستَ سعيدًا باستنطاقها وكسر جدار صمتها ذاك؟ أما كان الأولى بك أن تفرح وأنت تراها تتحدث بحماس واسترسال بعد ذاك الانقطاع المهلك؟

أليس من واجبك أن تشجِّعها لتواصل الحديث بلا خوف ولا تردد؟ وهو ما كنتَ تنتظره بفارغ الصبر.

لماذا أتهمها بالجنون؟... لست أنا بل هي أمي، ربما لأنها لم تستوعب بعض ما قالته. المفروض أن أدعها تصرخ بل وتكسر أي شيء أمامها لاستفراغ شحنة الغضب والأذى.

إنها هادئة الآن بعد أن أخذت قرصين من الحبوب المسكنة، تتأمل الشارع من شباك الغرفة، اقترحتُ عليها أن تنام قليلاً بالرغم من أنها ستعود غدًا وليس أمامي غير اليوم وبعض من الليل، فقد يعاودها العناد أو أشباح الخوف هناك وتعود لصمتها. لذا قررت أن أخرج وإياها للنهر مرة أخرى. سنأكل هناك وسنبقى إلى وقت متأخر من الليل.

ثم تذكرتُ شيئًا مهمًا، يا لي من أحمق وبذاكرة مشروخة، كان يجب أن أسجِّل كلامها بدلاً من شخبطة ملاحظات لا تفي بالغرض وقد لا يصدقني أحد.

لاحظت تذمر أمي وهي ترد بالنفي عن كل من يسأل عني بالتلفون «لا يمة خرج... لا أدري... لم أسأله» لا تحب الكذب، لذا صارت تتهرب من التلفون قدر المستطاع، تتركه يرن حتى يقطع. إذن خروجنا سيخفِّف عنها. أسرعت للتلفون واتصلت بصديق يشتغل بالصحافة لأستعير منه مسجله الصغير، ولا بأس أن أذكر له أنه يقدر أن يستخدم بعض المعلومات لكتابة مقال عنها فيما بعد قد يفيدها ذلك. ولكن حين يقترب موعد المحكمة.

استأجرتُ تاكسيًا لبيته على أن أعود بها. سأدَّعي له إني ذاهب للمركز ألتقيها لكي أسجل حوارها.

• • • •

لبستْ الفستان الذي اشتريتُه لها، كان عريضًا بعض الشيء، فلم أعرف قياسها أو أنها نحفت. المهم كان لونه جميلاً بلون أوراق الخريف النارية ويناسب بشرتها التي استعادت بعض حيويتها. كان الجو معتدلاً مما جعلني متحمسًا جدًا للسير نحو النهر.

- أنا أتفق مع كل الذي ذكرتِه... لم أكن أعرف أنكِ فيلسوفة ومفكرة أكثر منكِ محاسبة ناجحة.

ابتسمتْ وهي تتطلع إلي:

- يعني تريد تقول مجنونة... ولكن بطريقة مهذبة.

أجبتهُا بعصبية لأنفي تلك التهمة:

- مستحيل، لم أفكّر بذلك، أنا أعني ما قلتُ فعلاً... لكنكِ عاطفية أكثر من اللازم، هناك زوايا مشرقة أو أقل عتمة بالحياة، لذا لابد أن ننظر لكل الزوايا، بل لابد لنا أن نتوقف كثيرًا عند الزوايا الجميلة لنحتمل عتمة الأخرى وقسوتها... لابد أن ننظر للجوانب المشرقة فيها، فليس لنا خيار آخر، لابد أن نعيشها ونضحك معها وعليها قبل أن تضحك علينا، أو على الأقل لا نستفزها لكي لا تزيد من قسوتها، ونحن لا نملك القوة لمجابهتها مهما حاولنا.

تحدثتُ بحماس وانفعال، كنتُ أحرّك يديَّ وجسدي كله، كما لو أن الكلمات ستكون عاجزة عن التعبير ولن تصلها بالسرعة التي أريد... لا أدري كيف خطرتْ تلك الأفكار، ربما تأثرًا بها أو رغبة في إقناعها بأهمية

الحياة لأزيح عنها فكرة أو كابوس الموت.

ساد الصمت بعدها ولم تعلِّق، ربما الألم الذي تحاول أن تخفيه منعها. بقينا نمشي على شاطئ النهر، انحنتْ لتجمع بعض الحصى الملون القليل المتناثر على الأرض. تأملتُها وهي تمسح الغبار عنها، احتفظتْ بها بكفها وكسا وجهها ملامح طفولية وفرح. تذكرتُ المسجل لحظتها وأسرعتُ بتشغيله، حملته بيدي التي تحيط بكتفها.

- تصورتَ أنه ما دمتُ أشتغل محاسبة؛ فلن يخرج تفكيري عن نطاق الأرقام والمعادلات الحسابية!... قد يكون الأمر كذلك، عقلي الباطني الذي ربما تحول لحاسوب، جعلني أنظر للأمور من منظار رقمي... شخص واحد ربما هو مثلي مجنون يتسبب بقتل العشرات أو المئات ممن لا يعرفهم، لم يلتقِ بهم، معتقدًا أنه ينجز عملاً بطوليًا وهو يتسبب بانتزاع الحياة عنهم، يجعل أجسادهم الطرية تتناثر بلا سبب... وآخر أيضًا يتسبب بقتل الآلاف، قد يعرفه بعضهم من خلال الكُتب والصُّحف والقنوات التلفزيونية، لكنه هو لا يعرف عنهم أي شيء، لا يعرف عن آمالهم وأحلامهم، لا يعرف حتى إن كانوا يحبونه ويعتبرونه بطلهم أو يبغضونه ولا يتفقون مع أفكاره. فرأيتُ أن الأستاذ منصور، هو واحد من الذين تسببوا بالقتل الجماعي ولكن بشكل غير مباشر، من خلال الشعارات والبيانات والخُطب. وبعض الناس من البساطة والجهل والتخلف بإمكان الكلمات تلك، إن طُرحت بشكل ذكي، تخفي ما فيها من زيف وكذب بغلالة من الكلمات البرَّاقة، يمكن أن تعمي أبصارهم وبصيرتهم، وتقودهم للهاوية وهم لا يشعرون...

يتسببون بقتل العشرات بعملية غبية تستهدف أطفالاً ونساءً أو شبابًا وشيوخًا أبرياء، لا ذنب لهم غير أحلامهم الصغيرة واليتيمة أحيانًا، لتصبح مستحيلة في عالمنا.

أشاحت بوجهها تنظر لأُفق بعيد، واحمرَّت عيناها وقد حاصرتها الدموع.

وقفتُ عاجزًا، لا أعرف بماذا أعلِّق على كلامها... فتابعتْ هي بصوت هادئ ومخنوق:

- وإلا كيف تفسِّر تلك الحملات المتتالية في أفقر بِقاع الأرض، حملات للقتل والتخريب وكأن هناك قوى تقودهم للانقراض... الفرق بيني وبينهم، أني أعرف منصور، أعرفه وجهًا لوجه، أعرف أفكاره وأحلامه، وأعرف أنه قد تسبب بقتل الكثير من الأحلام... قد يتهمني البعض بالمبالغة، فهو ليس أكثر من سياسي، قد يكون فاشلاً، يترأس حزبًا مثل الكثير من الأحزاب التي تسعى للربح من خلال تسلمها السلطة، فهم تجار، بضاعتهم الكلمة يبيعونها للصحافة لإبراز أسمائهم، لتقرأ الناس عنهم، كما في الإعلانات أو الدعايات لبعض المنتجات، لو انقطعت الدعاية لأي منتج سينساه الناس ويشترون غيره، لذا يلجأون لإعلان مختلف، أكثر جاذبية لاستقطاب المستهلك. لذلك يضخمون من شعاراتهم، أحيانًا يلجأون للموروث القديم، يدغدغون به عقول البعض ويخدِّرونهم. وهؤلاء يصدِّقون ما يقولونه ويركضون خلفهم عميانًا لا يفقهون، مثل قطيع البهائم، فأمثال منصور لا يمكن أن يحيدوا عن الطريق الذي خطَّطوا له، لا يمكن أن يتصوروا أنفسهم بدون ذلك القطيع الذي ربما يرفضهم لو غيَّروا من النغمة التي يعزفون عليها. لذا

تراهم يواصلون السير على نفس المنهاج، خشية أن يصلهم الدور الذي وصله السابقون، ينعتونهم بالصفات التي باتت جاهزة سهلة الاستعمال منها التخاذل، الجُبن... بذلك اعتبرته مساهمًا أولاً بالجريمة حين شجَّع عليها وبرَّرها أو منحها صفات قدسية، جعلت المئات أو العشرات يسعون لارتكابها... ومن يشجع الجريمة يساهم بها، بل يصبح أحد مرتكبيها! أليس كذلك... ألا يوجد بالقانون شيئًا من هذا؟

سألتْ، ولكن لم تكن تنتظر جوابًا مني، فقبل أن أفتح فمي لأقول إنه فعلاً هناك قوانين تعتبر المشجع على الجريمة مثل مرتكبها. واصلت حديثها ولكن بهدوء وقد تراجع غضبها قليلاً:

- كثير من الأحيان، حين كنتُ أجلس معه وأسمع حواره مع الآخرين، أقول لابد إني مخطئة، فأقرِّر أن أقرأ كتبه ومحاضراته من جديد وبروح حيادية، فليس من المعقول أن أكون أنا فقط من اكتشف خطورة ما يقول... وصرتُ أقرأ كل ما يُكتب عنه، فاكتشفتُ أن هناك الكثيرين غيري من عرف ذلك وانتقده على ازدواجية أفكاره وكذبه، وإن كان هو يسميهم، أعداءه... لا بأس أن تكذب لإنقاذ نفسك، لا بأس أن تكون ازدواجي الأفكار والمبادئ والسلوك، هذا شأنك أو ربما هو قدرك، لكن بشرط أن لا تتسبب بأذى الآخر، أن لا تجعل من كذبك سلاحًا تقتل به العشرات ممن لم يؤذوا أحدًا ولم يشهروا السلاح ضدك. قد تقول الآن: «حسنًا هو لم يشهر السلاح ضدك، بل بالعكس استمع لكِ وأنتِ تنتقدينه أو تعاتبينه، بل منحك ثقته الكاملة، مع ذلك صوَّبتِ سلاحكِ بوجهه وانتزعتِ منه الحياة، كما انتُزِعت

حيوات الأبرياء الآخرين»... بلى، هذا ما أتوقع أن يقولوه... قلتُ لكَ إني تمنيتُ أن أكون مخطئة بحكمي عليه، تمنيتُ أن أكتشف خطأي وأعتذر له، بل كتبتُ اعتذارًا محتملاً، لكني وجدت نفسي كلما أغوص بتفكيره أكثر، كلما أسمع محاضراته أكثر؛ كلما يكبر حجم الزيف والخداع الذي يصير أكثر وضوحًا، الذي لو كان على مستوى شخصي لما فكرت فيه... لم يكن وعدًا بالحُب أو الزواج، أو مشكلات في العمل، بل هو أكبر وأكثر فظاعة، وكلما ازددتُ معرفةً بهذه الأمور، كلما يتعزز احتقاري له وخوفي من كل ما يقول ويكتب. لأجد نفسي وكأني أتورط أكثر بموضوع لا أعرف كيف الخلاص منه أو الرجوع عنه... قبلها كان شعوري خليطًا من الاحترام له لأنه متواضع وودود، كرئيس للمؤسسة ومسؤول بالحزب ويختلف عن بعض من عرفناهم... وتقبَّل رفضي لأفكاره منذ البداية، بل هو الوحيد الذي أحاوره عن أفكاره واعتراضي عليها وأناقشه دون الزملاء كلهم... هنا اكتشفتُ أنه مثل الأفعى بنعومتها وجمالها وخطورة سمومها، شعرت به عدوًا، بل أخطر من العدو الحقيقي الذي نعرف ما يضمر لنا وهناك إمكانية تجنبه أو الهروب من المخاطر التي يخطط لها، بينما الذي يلبس رداء العطف والصداقة والمبادئ والقيم ويعمل ضدها؛ هو حقًا أكثر خطورة من العدو الذي يدّعي قتاله...صِرتُ بعدها أحتقر نفسي، أحتقر عملي وقد انحسر كل احترام له، وحلَّ محل المحبة؛ كراهية ومقت للحد الذي حين يسافر أتمنى أن لا يعود، أدعو الله أن يشل لسانه إن هو نطق باطلاً، أو أدعو الله أن يهديه ويجعله يستقيل من السياسة ويترك التصريحات

والكتابة... لكنه يسير قدمًا بنفس الطريق الذي ربما مرسوم له من قِبَل من هم أكبر منه أو يستخدمونه فعلاً، أو هو حالة عناد لمن ينتقده، أو ربما هو سُكْر بنشوة الشهرة التي يمنحها المديح المنافق، فتتحول حالة الرضا عن النفس إلى غرور، ولم يعد قادرًا على العودة ولو بضع خطوات.

كانت تتحدث بسرعة وانفعال، لم تتح مجالاً لسؤال ما أو تعليق.

جلستْ وقد أعياها السير والغضب المتصاعد تدريجيًا مع تداعيات أفكارها. ضغطت بكفها على الحصى بيدها المكسورة فأفزعها وأفزعني الألم الذي جعلها تصرخ وتطوح بالحصى بعيدًا للنهر، الذي استفاقت موجاته الساكنة على ضرباتها وصرخاتها.

أسرعتُ لها واحتضنتها ووضعتُ رأسها على صدري لأهدئها، فصارت تبكي بحرقة. ربتُّ على شعرها وأنا أهمس:

- الكائن البشري معقد، لا تدرين كيف يفكر، فهناك أُناس تحرِّكهم القناعة فتجدينهم سعداء بالقليل الذي لديهم، وآخرون تحرِّكهم طموحات ورغبات ربما شيطانية، تصيبهم بالغرور فيواصلون ويسعون بل يطلبون المزيد.

كنت أتمنى أن أقدر على الدخول في متاهاتها الفلسفية، لم أشأ أن أكون محللاً نفسيًا، فلا وقت لجلسات استرخاء وتداعي الذكريات لنعرف من خلالها نفسية المريض وهي ليست مريضة، بل متهمة غير بريئة، حيث اعترفتْ بجريمتها ومع سبق الإصرار والترصد، الترصد الذي خطَّطتْ له،

فقد درستْ أفكاره ووجدتها هدَّامة وخطرة، منحتْها دافعًا لتقوم بواجبها إزاء مجتمع جاحد يفكر بالقصاص منها بدلاً من شكرها، فقد أوجدت لنفسها دورًا قياديًا استجمعت كل جرأتها لتعرض نفسها للمخاطر من أجل الصالح العام، من أجل إنقاذ بعض الأبرياء، والانتقام من القاتل. وتلك شجاعة يفتقدها الكثيرون، فالمفروض بنا أن نقيِّم ما فعلته لا أن ندينها.

قدَّمتُ لها قنينة الماء وأنا أحاول أن أطمئن عليها:

- هل ما زلتِ تتألمين؟

فقد رأيتها تقلص عضلات وجهها لتداري الألم.

أخذتْ نفسًا عميقًا ثم ارتشفتْ بعض الماء.

اقترحتُ عليها أن تأكل شيئًا، فلابد أنها جائعة الآن، فهي لم تأكل جيدًا، إضافة للجهد الذي بذلته. وافقتْ بسرعة أثارت دهشتي فقد حضَّرتُ نفسي للإلحاح عليها.

لمحتُ الشرطي الذي يراقبنا يجلس بعيدًا يتابعنا بنظراته ونحن نتجه صوب المقهى القريب لشراء ما سنأكله، فاشتريت ثلاث سندويشات دجاج مع خضار ومايونيز وأخرى تونا وخيار ومايونيز، الثالثة احتياط فيها جبنة مازوريلا وافوكادو وبعض الأعشاب. مع عصائر تفاح وبرتقال.

منحها الأكل شيئًا من الهدوء والراحة. لابد أن جوع الأيام السابقة ظهر تأثيره الآن. فضَّلتُ أن نأكل ما يسد جوعنا لنحتفظ ببعض الشهية للبيت، فلابد أن الوالدة قد طبخت أشياء لذيذة، أُفضِّل ما تطبخه على ما يقدم

في أرقى المطاعم، لذا أنتظر عودتنا بسرعة.

- هل تدري... لأول مرة أشعر بالندم وتأنيب الضمير لما فعلتُ، ليس لأنه لا يستحق الموت، كان يستحق الإسكات ولم تكن هناك طريقة أخرى غير تلك... لكني أشعر بندم الآن، لأني تعلقتُ بأمك كثيرًا، ليتني تعرفت عليها من قبل. أو... لو تتاح لي فرصة لأراها أكثر... هل تعتقد أنهم قد يخففون الحكم حقًا؟

شعرتُ بارتياح لأنها أقتنعتْ بوجهة نظري وصار لديها إيمان بالحياة، وبنفس الوقت خوف من الفشل في تحقيق تلك الأمنية، لدرجة تمنيتُ لو أني لم أقل لها عن هكذا احتمال، فإذا لم يستجيبوا لدفاعي، سأبدو مخادعًا غير وفيٍّ لها... فأسرعتُ لأقول مشجِّعًا:

- عندي إيمان أنهم سيتفهمون أسبابك ويقدِّرونها، فقط أريدك أن تصارحيني بكل شيء.

انسابت دمعتان من عينيها وهي تنظر إلى كأس العصير الذي أمامها. مسحتُ دموعها بيدي، تلك الدموع التي عاندتها من قبل وكانت ترفض تخطي حدود الرمش... فلمستْ يدي شاكرة:

- كنتُ أنتظرهُ، كنت على استعداد كامل له، بل أستقبله بكل شوق... وإذا بي الآن أراه يبتعد وأفرح ببُعده، بل صرت أعيش خوفًا من أن يأتي... لا أريده أن يأتي.

سأبدو غبيًا لو سألتها (مَنْ؟). لابد أنه ذاك الذي صار يتجول بكل ركن

وشارع بحُرية واستهتار.

صار صوتها خافتًا، فارتشفتْ قليلاً من الماء. في تلك اللحظة بالذات شعرتُ بحُب جارف لها، بشوق حارق، فمددتُ يدي لأحتضن يدها... لكنها أنقذتني، حيث وقفتْ ثم مشت باتجاه النهر. فراودني خوفٌ آخر أنها ربما فكرَّتْ أن ترمي نفسها بالنهر. لكنها قالت إنها لا تريده أن يأتي. نهضتُ أتبعها وأضع يدي على كتفها.

- يبدو أنه قدري، أو هي تركيبة في نفسي وُلدتُ بها فصارت مع الجينات، أن أتشوق لشيء ما، أنتظره بفارغ الصبر وحين يتأخر أو لا يأتي أصير أكرهه، أمقته لحد الاشمئزاز.

سرحتْ بنظراتها بعيدًا وابتسمتْ وهي تمسك بذراعي:

- في الابتدائية حلمتُ أن ألبس ساعة يدوية، فرسمتُ دائرة بأرقام على رسغي، صرتُ اتوقع في كل عيد أو حين أنجح؛ أن يهديني أبي أو أحد الأقرباء ساعة، حتى صرتُ كلما ينادي عليّ أحد أركض بقلب خافق لأستلم هديتي (الساعة)، بل همستُ يومًا لنفسي أنهم لو خيروني بين عودة أمي للحياة وبين الساعة سأختار الثانية... فجأة رأيت أمي تطل من بين السحب تعاتبني فأصرخ معتذرة لها: «سامحيني لم أقصد، كنت أمزح، أردت خداعهم» فتضحك دون أن تقول شيئًا وتتلاشى خلف الضباب... مرَّتْ سنوات ونسيت تلك الرغبة، في نهاية السنة الخامسة اشترى لي خالي ساعة جميلة وصغيرة، تحيط بزجاجها شذرات براقة، كانت تشبه سوارًا مرصعًا... عانقتُه شاكرة، ولكن لم تزايلني الخيبة وأنا ألبسها، فسألني إن

لم تعجبني يأخذني للمحل لأختار غيرها، لكني أكدتُ له حبي لها لأنها تشبه السوار... من يومها لم أشترِ ساعة، ومن يهديني واحدة أركنها جانبًا، أو أضعها في جيبي.

كانت تحكي وابتسامة حزينة ترسمها على شفاهها... توقفتْ لحظات ثم تابعت بحزن:

- خالي كان على خلاف مع أبي فكريًا، لكنه حرص أن يزورنا من أجلي، استكثروا عليَّ حبه... قُبض عليه يومًا بلا سبب، أو ربما لأنه لا يعرف الصمت أو التغاضي عما يراه من أخطاء أو جرائم، ولم ينتمِ إلى قطيعهم... فاختفى كل أثر له ولم يجرؤ أحد على السؤال عنه أو المطالبة بخبر عنه، أو حتى جثته إن كانوا قتلوه! لا أذكر ما حلَّ بتلك الساعة، كم أتمنى لو أني احتفظت بها، فقد اختفت بعد شهور من إهدائها لي.

تطلعتُ لذراعها عفويا، وكأني أردت أن اتأكد من كلامها، كان ذراعها خاليًا وأصابعها أيضًا، ما عدا خاتم ذهبي صغير بحجر أسود.

- هل أمكِ متوفاة؟

سألتها بشيء من الأسى.

- بعد عام من ولادتي، حملتْ بطفل كانت تتمناه ولدًا لتُرضي أبي، في أحد الأيام تشاجر معها، يقول البعض بسبب قميص لم تكوه، الآخر يقول أنها تجاسرت عليه فثارت ثورته ودفعها بقوة فوقعت مما تسبب بإسقاط الجنين، أصابتها حمى قوية لم تمهلها غير بضعة شهور. تزوج أبي

بعدها بعام، فتعلقتُ بزوجته وصرتُ أعتبرها أمي، هي أيضًا أحبتني... لكن بعد ولادة أخي ابنها صرت أغار منه وقد نسيتني تمامًا، ثم صارت تضربني كلما أخذتُ منه شيئًا... فاقتنعت أنها لا تحبني لأنني بنت، الكل يفضل الأولاد، فصرت أكرهني واستولت علي رغبة أن أكون ولدًا... أليس الله علي كل شيء قدير، لماذا لا يحولني إلى ولد! قضيت أيام وليالٍ أحلم أن أستيقظ يومًا لأجد نفسي ولدًا... وبعد يأسي من تلك الأمنية، حاولت أن أصير مطيعة أفعل كل ما يأمرونني به.

تأملتُها وهي تواصل الحديث دون أن تتطلع لي على الأقل لتعرف إن كنتُ أنصت لها! الحقيقة أني ندمت على سؤالها ذاك مع ذلك صمتُ ولم أقاطعها، لا أنكر أن صوتها جميل ودافئ يبعث على الرضا لسماعها. ومن يدري لعلي أحظى بملاحظة قد تنفع في القضية.

-... بعد سنوات ومع تراكم الواجبات المدرسية صرتُ أشعر بإرهاق من طلباتهم، حتى أخي الأصغر صار يأمرني كما يفعل أبي... في يوم انتبهت لعمتي وهي تؤنبهم: «اتركوها ترتاح، أليس لها دروس مثلكم، متى تعملها وأنتم لا تكفون عن طلباتكم؟» كم فرحتُ يومها، أردتُ أن أقبّلها وكدت أرمي ما بيدي، لكني توقفت حين سمعت أمي، أي زوجة أبي تغضب منها: «إنها الكبيرة، وواجب عليكِ أن تنصحيها بمساعدتي، لا أن تعصّيها علي». وفوجئت بأبي يعلّق: «مافائدة الفتاة بالبيت المفروض أن تعتني بإخوتها، ويكفي تضييع وقتها بالدراسة». أقتنعت إن الفتاة ما هي إلا خادمة لأخوتها، حتى يحين زواجها لتواصل خدمتها له، والذي سيلعن من

ربَّوها، لو تأخرت عنه بشيء.

صمتتْ وقد لاح على وجهها إحساس بألم أو ندم، ربما هي يدها مازالت تؤلمها أو الذكريات. صرتُ متلهفًا لأسمع كل القصة...

- آسفة على استرسالي بالحديث، لا أذكر ما الذي أوصلني للحديث عن هذه الأمور التي لا علاقة لها بالقضية ولا تهمك أبدًا... لكن لأول مرة أشعر بمتعة وأنا أتحدث عن تلك الذكريات، بل هي المرة الأولى التي أتحدث بها عن تلك الفترة... الأفضل أن تسألني لأجيبك بشكل محدد، كما كنت تفعل في مركز الشرطة.

الحقيقة بالرغم من قلقي من استرسالها بإسهاب، حيث لا وقت لدينا حتى لو سهرنا للصباح، لكني قرَّرتُ أن أتركها تتحدث كيفما تشاء، شدَّني صوتها وهي تتحدث، بدا لي مختلفًا عن قبل، فيه ثقة ودفء واستسلام أيضًا، لكن بلا خوف أو جزع، لم أنتبه لذلك من قبل، وقد أتوصل لبعض النقاط التي قد تفيدني عن طفولتها المعذبة... مهلاً، من يعبأ بهذه الأمور، معظم البنات في مجتمعنا يواجهن تلك التفرقة والقسوة. لكني ابتسمتُ لها مشجعًا:

- بالعكس، أنا سعيد بسماع كل كلمة، طريقتك بالحديث ممتعة، وكل ما تقولينه مهم، صدقيني، اتفقنا على أن لا تخفي عني أمرًا... المهم أنتِ، إذا شعرتِ بتعب قولي لي لنعود للبيت لتنامي قليلاً على الأقل.

- النوم!... ما أطال النوم عمرًا، ولا قصَّر الأعمار طول السهر... خاصةً

وأنا لم يبقَ لي سوى بضعة أيام أو شهور.

- أنتِ شجاعة، وسط تلك الظروف والإحباطات واصلتِ الدراسة ونجحتِ وعملتِ، والدراسات الحديثة تؤكد على أهمية النوم.

قلتُ مشجعًا، وكذلك عن قناعة.

- شكرًا، لم أكن متفوقة ولا محظوظة... على فكرة أنا أؤمن بالحظ وبشكل مطلق، لقد مرتْ بي أمور لا يمكن تفسيرها بغير الحظ، حتى ما نتفوه به يلعب الحظ دورًا به، كأن تقول الشيء المناسب بالمكان المناسب.

- إذن أنتِ محظوظة، ها أنتِ تقولين الكلام الجميل المناسب للشخص المناسب وبالمكان المناسب.

- لكنك ستبتعد، ومن يدري ما الذي سيحصل.

ضحكتْ وهي تهمس.

قاطعتُها وأنا أؤكد:

- لكنكِ قلت ما قُلتِه للمحاضر والسياسي المعروف، ونِلتِ إعجابه لتعملي معه فيما بعد... إذن ما قلتِه كان مناسبًا في كل شيء.

- هناك أمور تحدث لمخطط بعيد المدى، كان بإمكانه أن يسخر مني، كما حصل مع غيره، لكنه القدر خطَّط لما حصل ليحصل ما حدث بعد ذلك. فلو لم أشتغل معه لما عرفته، أو كنتُ حالي حال غيري، ممن يختلفون أو يتفقون معه دون تدخل، لكن قدري شاء أن أدخل في دهاليز مظلمة،

لأتخذَ ذلك القرار الخطير لأركض نحو هاوية لا يعرف قرارها.

- أعرف أنكِ نادمة على ما فعلتِ، ليس لأنه لا يستحق ذلك العقاب، بل لأنكِ رقيقة وعاطفية، لكن حتى لو كنتِ بعيدة عنه، فبمعرفتكِ وثقافتكِ كنتِ ستصلين إليه، وهذا ما جعلك تلغين مغريات الحياة لتُسْكتيه وفي ذهنك خلاص الكثير ممن لا تعرفينهم، كمحاولة لإنقاذهم... ولابد أن الذين اندفعوا وراء الشعارات الفارغة لممارسة ما هو بشع بلا دراسة ولا تفكير، لابد أنهم الآن صامتون يتساءلون عن السبب الذي دفع تلك الإنسانة الهادئة الوديعة لتفعل ذلك... وهذا ليس بقليل.

قلتُ ذلك بحماس شعرتُ فيه بمبالغة، فالمفروض هي من يتحدث، لا أنا.

- هذا إذا لم يفسِّروا الأمر بطريقتهم، لابد أنها أرادت منه شيئًا وهو إنسان ورع وسوي، فرفض، فهو لا يقبل الخطأ، وطردها بهدوء لتنتقم منه بهذه الطريقة... فأنا بعُرفهم بلا أهل ولا ضمير ولا أخلاق، خاصةً لبعض (الورعين) ممن يستنكرون عيشي لوحدي وعملي بمؤسسة بها الكثير من الرجال.

- ربما... ولكن تلك الفتاة، كان بإمكانها أن تهرب، أن تسافر بسهولة دون أن يمسها سوء، ولن يتمكن أحد من الوصول إليها، لتعيش براحة بال، ولأنها إنسانة بضمير وأخلاق سلَّمت نفسها. ولابد أن تصل رسالتك للكل، لعلها تكون جرسًا يوقظ بعض النيام أو ينبِّه بعض المغفلين.

صرتُ أؤمن بأسبابها وأقدِّر عاليًا شجاعتها، لكن لابد أن نجد بعضًا من تلك الوثائق التي ذكَرَتْها لدعم كلامها وتكون حجة لإثبات الحقيقة. هل سبب إيماني بها هو تلك المشاعر التي شعرتُها منذ لحظات، والتي لم تتغير بعد، أم هي لتعاطفي معها وشعوري بالأسى لقصتها؟... فما ذكرتْه مقنعًا ولابد أن الكثيرين فكَّروا فيه. ولكن، لو قتلنا كل من نختلف معهم لما بقي إنسان... مهلاً، هي لم تقتله لخلاف بالرأي، بل لأنه كان خطرًا على أرواح الناس الأبرياء.

- لو كنتُ التقيتُ بك بظرف آخر وزمن آخر؛ هل كنتَ... هل كنتَ ستعجب بي مثلاً؟ هل بالإمكان أن تحب فتاة مِثْلي؟

فاجأتْني بسؤالها... هل قرأتْ أفكاري وما شعرتُ به إزاءها، هل لمحتْ إعجابي بها؟ أم أنها فسَّرتْ تعاطفي معها على أنه حُب... ولكن ما هو الحب؟ هل هو مشاعر خرافية؟ ألم أمرّ بها من قبل، واشتعلتْ نيرانه وتصاعد سناها ولم تخمد إلا بعد صراع مرير مع النفس وعذاباتها؟ بعد زواج «إلهام» من قريبها التاجر الغني.

- «بلا شك... ولكن هل تريدين أن تقولي إنكِ لم تمري بتجربة حُب من قبل؟

... سألتُها بابتسامة مشجعة.

- بالطبع تلك المشاعر، ربما هي الخيط الذي يشدنا للحياة، مهما كان واهيًا ورفيعًا... لكن أردتُ أن أقول إن الحظ هنا يلعب دورًا أيضًا... منذ

سنين لم أشعر براحة لشخص كما أشعر معك، وكأن القدر يضحك عليَّ مرةً أخرى، فهو يعرف إنَّا مفترقان وإنك لا تسمعني إلا كمحامي، فيبدو كما الطبيب النفسي الذي يتعلق به المريض... في كل مرة يفتح القدر كوة أو رازونة في زوايا الأيام، ليطل منها وجهٌ أو صوتٌ يقرِّبني من الأمل في تحقيق الأمنية، ليغيِّر رؤيتي للعالم... بعد أيام أو ربما ساعات سيختفي كل ذلك وتُغلق كل النوافذ. فأنتَ من حقك أن تكون صارمًا، غير متعاطف، فأنا لم أكلِّفك بالدفاع عني ولا تنتظر أي مقابل لأتعابكَ، مع ذلك ها أنت تصغي لي كصديق حميم، كأخ تمنيته بالأحلام، كحبيب اجتمعت فيه كل الخصال التي حلمتُ بها في حالات التمني والخيال... وأعرف إنه بعد أيام أو شهور سيتلاشى كل ذلك وتتبعثر تلك الأحلام كغيوم تداهمها الريح.

في تلك اللحظة تمنيتُ لو أعانقها، أقبِّلها، أضمها لصدري، وأنا أقرأ كم الحزن والخيبة في عينيها... لكني لم أشأ أن أوهمها، أن أعطيها أملاً كاذبًا وهي تكره الكذب بكل أشكاله. كذلك لا أريد أن أثير حفيظة ذلك الشرطي الذي يرابط ولم يتزحزح حتى يأتي زميله لينوب عنه.

امتدَّتْ يدي تمسح على شعرها، شعرت بأصابعي كأنها كائنات حية، كائنات جميلة، فراشات تلعب بشعرها الذي كان ناعمًا حريريًا وهو ينساب من بين أصابعي...

- أنتِ جميلة وذكية وذات ثقافة عالية، امرأة نادرة، يحلم بلقائها أي رجل... لكن لا أريد خداعك، مشاعري معكِ فعلاً، ولكن لا أفكِّر بالحب الآن، لا أريد أي تفكير يشكِّل عائقًا أو يؤثر على القضية، فلا أريد أن أعطيهم

انطباعًا بأن رأيي مبني على أرضية عاطفية.

لم أكن مقتنعًا بما قلتُ لها، بدا كأنه كذبة غبية، أو طريقة حمقاء للخروج من مأزق... لم يكن مأزقًا، ولكن هل كنتُ خائفًا أم جبانًا؟... خِفتُ أن أحبها حقًا وأتعذب لفراقها!

كانت بي رغبة أن أسمعها تحكي عن حياتها العاطفية، أو على الأقل تتم ما قطعته. لكنها صمتت، لم تتطلع لي، شعور بالإحراج انتابني، واصلتْ هي النظر بعيدًا أو لم تكن تنظر إلى شيء محدد.

شعرتُ بالقرف والندم، كان الأولى بي أن أكون صادقًا، أو على الأقل أخرج من الموضوع بشكل أكثر لياقة وحكمة.

صار وجهها معتمًا، ليزداد ندمي على ما قلت، لماذا لا يكون هناك جهاز ينبهنا لخطورة وسخافة ما نقول لكي نؤجله على الأقل. هناك أناس لديهم ذلك الجهاز، سمته هي الحظ، ربما هو الذكاء وسرعة البديهة... معها حق، وجود ذلك لدى شخص دون آخر لابد أن يكون سببه الحظ.

- لماذا لا تفكرين بالاتصال بأهلك، على الأقل بعمتك؟

ما الذي أردته من ذلك السؤال الذي قفز بلا تخطيط، ربما لتغيير الموضوع، لتشجيعها على مواصلة الحديث.

رفضتْ الكلام، لمستْ يدي بحنان:

- أنا آسفة... أشعر بضيق وتعب، لنعد للبيت... إذا سمحت.

نهضتْ دون انتظار جوابي، أمسكتُ يدها، فصرختْ بشكل عفوي،

لأكتشف أني أمسكتُ اليد الموجوعة بالخطأ.

فزعتُ وانتابني حرجٌ وارتباك لم أعرفه من قبل... اللعنة، ماذا جرى لي.

- آه... أنا آسف... يا إلهي... أنا آسف حقًا، لم أنتبه.

انحنتْ تحتضن كفها، وصارت تبكي، ثم تمالكت نفسها واستقامت وهي تهمس:

- لا عليك... لا شيء.

واصلتْ البكاء بصمت، فتركتُها لعلها تتخلص من حِمل الأذى والحزن والخيبة بالبكاء.

في تلك اللحظة شعرتُ بثقل الهواء، ثقل المهمة، ثقل اليأس الذي انتقل لي، فكرهتُها وأنا أرى بها السبب بتبخر الأمل لديّ. بتبديد السعادة التي سببها شعور بالإعجاب بها منذ لحظات. أو لأنها سبب بكشف عجزي أو خطأي... تضايقتُ لتكرار أخطائي لمرات متتالية أمامها.

واصلنا الطريق بصمت، كل شيء يقف كصخرة صماء أمام أي كلمة أفكِّر فيها. خفتُ أن أنطق فأطبَّ بخطأ آخر.

حين دخلنا قبلتْ هي يد أمي واعتذرتْ منها، ودخلتْ الغرفة وأغلقتْ الباب خلفها.

سألتني أمي بقلق:

- ما الذي حصل؟ هل معقول أن تكون على نفس حالتها منذ الصباح؟

شربتُ كأس الماء دفعة واحدة قبل أن أجيبها:

- لا... كانت هادئة وفي حالة لا بأس بها، لكني بالخطأ أمسكتُ يدها المكسورة، يبدو أن إصبعها تورم... اتركيها الآن لعلها تنام، لقد تعبتْ.

حاولتُ أن أشغل نفسي... بعد أن ثقلت نوبة الحزن التي جثمت عليّ، خفت أن تفجر رغبتي بالبكاء... فاقترحتُ أن أساعدها بإعداد العشاء بالرغم من تلاشي شهيتي.

• • • •

تمددتُ على السرير دون أن أغيِّر ملابسي، بل دون أن أخلع حذائي، تأملتُ السقف بخطوط الضياء الآتية من مصابيح الشارع، تقلبتُ عدة مرات، ثم تذكرتُ المسجل وأعدتُ الاستماع لما قالته، حاولتُ أن أكتب، أسجِّله على الورق، لكن يدي عاندتني، وبقيت أعيد الاستماع كما لو أني أعيد أغنية أحبها. ثم وضعته بجيب بنطلوني ونمت، لا أدري متى.

نهضتُ مفزوعًا، كدتُ أصرخ وأنا أرى شبحًا يقف أمامي!

مرتْ لحظات سرمدية لأعيد نفسي للغرفة... لأعرف أن «هدى» وليس شبحًا ذاك الذي أمامي! نهضتُ واقفًا مرعوبًا، شعرتُ كما لو أن قلبي سقط بين قدمي... هل تريد أن تقتلني، لأني لم اتجاوب معها؟ ألم تقتل منصور لأنه لم يصغ لها؟ ما هذا؟ إنه كابوس، لابد أنه كابوس، لو صرختُ لما سمعني أحد، كما في كل الكوابيس... صرخت بأعلى صوتي:

- هدى... أهذا أنتِ؟

فصاحت بي:

- اخفض صوتك، هل جننت؟ أمك تصلي الفجر.

- إذن هو ليس كابوس... ماذا تريدين؟

... سألتُ بغضب وخوف معًا.

- أنا آسفة، أزعجتك، ولكن تعال معي للغرفة الآن قبل أن تأتي أمك.

هل جُنَّتْ؟ ماذا تريد في مثل هذه الساعة، جنس؟ إنها مجنونة رسمي إذن.

أطفأت النور، فامتلأت الغرفة بنور الفجر. المهم أنها لم تقتلني... مازال النعاس يثقل تفكيري فلم أعِ ولم أقدر أن أسأل عن، ماذا تريد؟ كانت منفعلة وترتعش كلها.

- انظر من النافذة دون أن تفتح الستارة، هل ترى رجلين يقفان مع الشرطي؟»

لمحتُ وسط النور الشاحب لضوء الشارع، كان هناك رجلان بلباس مدني أحدهما بقمصلة جلد...

- ربما يسألانه عن شيء ما، لا أظن الموضوع يخصك.

- اسمع أرجوك، افعل ما سأقوله لك بسرعة وبلا تردد... خذ الخالة الآن؛ أمك، وأبعدها عن هنا، خذها لبيت أحد اقربائكَ البعيدين عن محيط معارفك، أي من الذين لا يمكن الوصول إليهم... لا أعرف، المهم أن تبعدها الآن قبل فوات الأوان.

هززتُ رأسي لأنفض بقايا النعاس فلم أصدق ما أسمع. كانت ترتجف مثل سعفة، وكلماتها ترتعش، وجهها شاحب وشفتاها جافتان.

- أمي... لماذا؟ ما الذي تقولينه؟

صار الكابوس أكثر رُعبا.

- لا وقت لأشرح لك، لقد لمحتُهما منذ ساعة، وحين بقيا هكذا خفت أن تكون هناك خطة ما في رأسهما... أرجوك لا أريد أن يصيب أمك أي مكروه بسببي... كف عن النقاش واصحى الآن، وخذها بتاكسي بأي ثمن.

دفعتني بيدها وهي تهمس.

- خذها دون أن تشعرها بالخطر، اختلق أي حجة، المهم أن تبتعدا الآن... سأخبرك عن التفاصيل حين أراك، سأنتظرك هنا.

الخوف الذي بدا على وجهها أربكني ولم يترك مجالاً للتردد، ربما هي على حق... لماذا لم أفكِّر بالأمر من قبل... لقد رأيت الضجة التي سببها الحدث، المفروض أن أتابع الصحافة والإعلام وما يقولونه وما يخططون له... لكن بيتي بعيد عن الضجة وزحام الأحداث، فلم أتوقع أن هناك خطورة من جلبها معي للبيت.

لكن موعدنا اليوم لإعادتها للمركز، هي تعرف ذلك، لماذا لا تنتظر لنذهب معًا أوصلها ثم آخذ أمي بعيدًا من هنا.

كانت الأفكار تتناثر أمامي وأنا أجمع بعض الأوراق والوثائق في حقيبة صغيرة. أسرعت لها لأطرح عليها الفكرة، فإذا بها تسلمني حقيبة:

- هذا ما قدرت أن أجمعه مما قد تحتاجه أمك، أو مهم بالنسبة لها... أسرع أرجوك.

- وأنتِ، كيف أتركك هنا؟ تعالي معنا.

- لا تخف عليّ، يراقبوننا، ولو ذهبت معكم سيعرفون أني معك وسيلحقون بنا، بينما أنت وهي، سيتوهمون أني هنا وحدي... يا إلهي لماذا تضيع الوقت؟ اذهب بسرعة، ثق بي، أنا أعرف ما يضمرون.

لمحتْ أمي تهامسنا والخوف على وجوهنا وقبل أن تنطق بالسؤال

عانقتْها هدى وقبَّلتها:

- سامحيني يا أمي، أعتذر لكِ، أنتِ أجمل إنسانة التقيها.

شرحت لأمي على السريع ضرورة خروجنا الآن، لأن خالي تعبان ولابد من زيارته الآن، بعدها أعود آخذ هدى للمركز.

- لا بأس عليكِ يا بنتي... لماذا تعتذرين، أنا قلبي معكِ، أتمنى لكِ الأمان والمغفرة... اهتمي بنفسكِ، كوني حذرة، إياكِ أن تفتحي الباب مهما كان الطارق.

كانت تؤشر لي للإسراع، فأخذتُ أمي وأسرعتُ للخارج... لمحتُ انشغال الشرطي مع الرجلين وهما يتطلعان للشباك. أوقفت سيارة أجرة مرَّتْ بقُربنا واندفعنا بداخلها، وطلبتُ من السائق أن يُسرع.

هل لهم علاقة بمنصور «أنا أعرفهم» قالت. ما الذي يريدونه؟ وفي مثل هذه الساعة؟ ربما يريدون التأكد من إعادتها وعدم هروبها... كانت متسرعة، لماذا أصغيتُ لها؟ ماذا جرى لي، كيف أقدر على التخطيط وأنا بهذه الحالة... كان أولى بي أن أرفض هذه القضية، ها أنا ذا أكتشف أني عاجز عن التفكير المنطقي أو التخطيط بشكل معقول.

لم أصغِ لأمي وهي تتسائل، فهمستُ لها:

- خالي بخير. هناك شيء سأشرحه لك لاحقًا، لأني حقًا لا أعرف بالضبط ما هو... المهم سنذهب الآن لبيت أحد الأصدقاء، أمه امرأة طيبة ستبقين معهم اليوم واليوم التالي ربما، حتى آتي لآخذكِ بنفسي... فقط حتى لا

يزعجك أحد بالأسئلة، لقد عرفوا أني أخذتها، وربما أخبروا الصحافة أو غيرهم... المهم إذا لم آتِ لك غدًا أو بعده فلا تقلقي، اعرفي فقط لأني مشغول بالقضية.

- لماذا تركتها إذن؟... لابد أنها معرضة للخطر بشكل أكبر وهي وحدها.

طمأنتُها بكلام أنا غير مقتنع به. صمتت هي فلم تقتنع حتمًا، لكنها لمست يدي وهي تتوسل:

- انتبه لنفسك... أيها الحبيب.

قبَّلتها على رأسها لأهدِّئ من قلقي أكثر منها وسيلة لتطْمينها.

كيف أسامح نفسي لو جرى لها شيء؟

- هل بإمكانك أن تسرع قليلاً... الشارع خالٍ تقريبًا.

... سألتُ السائق بنزق، فردَّ بتذمر:

- ترى الشوارع مخربة والإشارات عاطلة فلا تدري من أين يأتيك الخطر.

لم أقدر أن أحاججه، فقلتُ:

- آسف، أردت أن أوصل الوالدة قبل وقت، أختي تلد وليس معها أحد.

ونغزْتُ أمي لتدعِّم كلامي... تطلعتْ بي ثم ابتسمتْ:

- أي والله يمّة، الله يخليك.

رأسي صارت تدور به أسوأ الصور، تتسابق لتزيدني هلعًا... شاغلتُ نفسي بالتطلع لحقيبتي، لـلأوراق بداخلها، قلبَّتُ ما يخصها، قرأتُ

الملاحظات التي سجَّلتُها. كدت أبكي كما لو إني مفارقها لا محال.

لم أصدِّق أذني حين سأل السائق:

- لقد وصلنا المنطقة، في أي شارع هم؟

أرشدته حتى وصلنا، طلبتُ منه أن ينتظرني ليعود بي.

أسرعتُ بأمي وأعطيتها حقيبتها... أفهمتُ صديقي عباس على السريع ضرورة بقاء أمي معهم لبضعة أيام، ووعدته أن أكلمه لأفهمُه الحكاية بالتفصيل... ثم أسرعتُ للسائق أستعجله العودة.

ما فائدة السرعة الآن؟ لابد أنهم وصلوا لها. هل سيمنعهمْ الشرطي «أنا أعرفهم وعندي تصور عن ما يخططون له... أسرعْ» صوتها يدق طبولاً في رأسي. إنها تعرفهم، هل كنتُ نائمًا، كيف لم أستوعب ما قالت؟.

استعدتُ صورة الشرطي وهو يحكي معهما... هل كان متفقًا معهما؟ المفروض أن لا أحد يعلم بوجودها معنا.

من هم؟ لماذا يريدون أذية أمي؟ ما علاقتها بالموضوع؟ إذا كانوا أتوا لينتقموا منها أو قتلها، أليس الأولى بها الهرب؟ أو تصر على إعادتها للمركز الآن بدلاً من إقلاق أمي بهذه الرحلة المتعبة؟

إذن... أيها المحامي العبقري، لقد خطَّطتْ هي للهرب! فاستغلت وجود الرجلان لتوهمْني بالخطر. أرادت إحراجي بعد صدمتها بي. أو ندمت فعلاً على تسليم نفسها للشرطة.

كدتُ أجرح شفتي السفلى وأنا أضغط عليها بأسناني. لو كانا حقًا أتيا

من أجلها، لماذا لم يستوقفاني أو يتبعاني؟ ما العمل؟ هم المخطئون، لقد أكدتُ عليهم أن لا يعرف أحد بموضوع وجودها معي. انقطعت عن المكتب من أجل ذلك، لكنهم لم يلتزموا... لتهرب إذن.

ربما كل ما قالته هو تمثيل، أو قد يكون صحيحًا، وربما تبعوني دون علمي ليهدّدوني بأمي كما أوحت... يا إلهي ما الذي فعلته؟ ليتني لم أسمع كلامها، ليتني أخذتها معي... ما فائدة التمني؟

- هل لمحتَ خلال ذهابنا هناك من يتبعنا، أي يتبع سيارتك؟

فوجئ السائق بالسؤال.

- ماذا تعني؟ هل هناك من يطاردك؟.

- لا... طبعًا لا... ولكن لمحت سيارة خلفنا.

سألت بحيرة ماذا يمكن أن أفعل لو كان هناك من يقتفي أثرنا.

- أنا بالي مشغول بالطريق، لم الحظ أي سيارة تتبعنا.

لماذا أسأل هكذا أسئلة، هل لأثير حفيظته وشكوكه؟ فجأة أرعبتني فكرة أن يكون متفقًا معهم ليُدلّهم فيما بعد عن المكان، بهذا أكون تسببت بأذى صديقي وعائلته أيضًا!

وإذا لم يتبعوني فهي إذن صيدٌ سهلٌ لهم، إذا لم تهرب فعلاً.

استعدتُ صورة الشرطي وهو مشغول بالحوار معهما، لم يلمحني خارجًا، أو هكذا تمنيتُ لأحظى ببعض الهدوء... أي هدوء؟ كدت أنزل من السيارة لأكمل الطريق ركضًا، فما عدتُ أطيق الجلوس على المقاعد.

في بداية الشارع لمحتُ ضجة وسيارات إطفاء الحرائق وسيارة للشرطة، وإسعاف، وأُناسًا بالعشرات يتراكضون بكل الاتجاهات... صرختُ:

- ما الذي حصل؟

- هل يمكن أن تدفع الحساب الآن؟

التفتُ للسائق، حسبته يجيب على تساؤلي

- ماذا؟

- عفوًا، هناك فوضى، الأفضل أن آخذ الأجرة الآن لأذهب على باب الله.

منحته كل ما جاء بيدي وركضتُ مسرعًا، كادتْ ساقاي تخذلاني، وأنا أرى دخانًا ينطلق من شبابيك دارنا!

أسرع الجيران يهدئون من روعي، ويحاولون منعي من الاندفاع داخل البيت، فصرختُ بلا وعي:

- هدى...

طمأنني أحد رجال الإطفاء:

- لم يكن أحدٌ في الدار... لقد تمكَّن الرجال من إطفاء النار بسرعة بفضل الجيران الذين سارعوا قبل وصولنا لإطفائها.

ثم نادى على اثنين من رجاله وأمرهما بالكشف الدقيق للمكان، فركضتُ معهم وقلبي يخفق مثل طبول الحرب. ما الذي سأجده، بقاياها؟

أنا السبب لم أكن أعرف أني بهذا الغباء وقلة الحيلة، لو تركتها بالمركز وتحت حمايتهم لما حصل ذلك.

لم أرَ الشرطي بل رأيت بديلَهُ. لابد أن أحدهما متواطئ مع الرجلين الذين رأيتهما. من هما؟... شكوكي إذن كانت صحيحة.

شعرتُ بثقل الهواء فصرختُ بأعلى صوتي:

- كلاب... وحوش... قتلَة... لماذا؟

وانخرطتُ بنوبة بكاء لم أسيطر عليها.

عانقني جارنا أبو ماجد:

- بشير... اهدأ يا أخي، كل شيء يتعوض، الحمد لله على سلامتك ونشكر الله أن أمك لم تكن بالبيت، الباقي يتعوض... هرعنا كلنا، لكن زوجتي طمأنتنا، قالت إنها لمحتكُما تخرجان من البيت.

- صحيح... أخذت أمي لزيارة قريبتنا المريضة، خرجتُ مبكرًا لأنه كان لدي عمل مبكر لابد من إنجازه... ما الذي أفعله الآن، كيف أتصرف؟

- ربما هو حادث... نسيتم سيجارة أو طباخ مشتعل؟

... سأل أحدهم، فنظرتُ له بغضب.

- أنا لا أدخِّن، وخرجنا بعد صلاة الفجر أي لم نلحق إشعال أي شيء.

كنتُ غاضبًا أريد أن أضرب أحدًا... لمحتُ الشرطي وركضتُ صوبه، أمسكت بتلابيبه وأنا أصرخ به:

- من كان أولئك السفلة الذين تواطأتُم معهم؟ لماذا؟... تكلَّم أيها النذل الجبان، أليس واجبك أن تراقب البيت... أن تحميها؟

أفلتَ نفسه مني غاضبًا:

- ما الذي تقوله؟ الظاهر إن المصيبة جننتك، ما علاقتي أنا بالموضوع؟

هبَّ الآخرون يهدئوني:

- تمالك أعصابك، هذا المسكين لم يأتِ إلا منذ لحظات.

فصاح يدافع عن نفسه:

- لم أتأخر، مع ذلك وجدته قد ذهب، ربما بسبب الحريق راح ليخبر المركز».

ثم همس بأذني:

- أين هي، المتهمة؟

- تسألني... أنا؟ اسأل روحك، اسأل زميلك، اسأل الأنذال الذي فعلوا ذلك.

اقترب مني بعض رجال الشرطة ليسألوني:

- هل تعتقد أنها جريمة بفعل فاعل؟... هل تشك بأحد.

- إنهم جماعة منصور، لابد أن واحدًا منهم قرر أن يقتل المتهمة قبل أن تفضحهم.

قلت غير عابئ بما قد يحصل، لكن الكلمات تحشرجت في حنجرتي واختنقت بالبكاء.

اجتمع مصورون من بعض التلفزيونات، فصرختُ بهم:

- كلاب، من أجلكم سلَّمت نفسها... كان بإمكانها الهرب، أن تنهب

مثلكم الأموال وتهرب، أن لا تعير أهمية لكم، أو لأي أحد، كما تفعلون جميعكم... لكنها لم تفعل لأنها تملك ضميرًا حيًّا، لأنها من البشر وأنتم بهائم يستخدمكم منصور وغيره كمطية للوصول لأهدافهم الوضيعة... عرّضتْ نفسها لخطر الموت، وهي الشابة الصغيرة التي لم ترَ من الحياة شيئًا، لم تفكّر بمصلحتها... لم تكن تعلم بعمق جهلكم وغبائكم.

اختنقت الكلمات وتعثرت الجُمل بحلقي، وبدى صوتي كما لو أنه لشخص آخر. جفَّت شفتاي فمدَّني أحدهم بقنينة ماء.

- مسكين، الصدمة كبيرة، أذهلته.

- من هي التي يتحدث عنها؟ هل يعني أن هناك شخص آخر كان في البيت؟

- إنه يهذي، ما بك؟

كانت أصوات عديدة تصلني وأخرى مشوشة لم أفهم منها.

ربت أحدهم على ظهري، وامرأة غريبة ربتت على كتفي، عيناها ملأى بالدموع، تغطي نصف وجها بالعباءة.

سحبني جاري أبو ماجد لبيته وهو يشير للآخرين ليذهبوا.

جاء بتلك اللحظة أحد رجال الاطفاء ليؤكد أنه لم يجد أثرًا لشخص في البيت، ويطمئني إن الأضرار لم تكن كبيرة.

تلك المعلومة أثلجت صدري، فهدأتُ قليلاً، بل كدتُ أضحك بصوتٍ عالٍ فرحًا بنجاتها. وسألت أبو ماجد أن يعطيني سيجارة لعلها تهدئني،

كنت نجحت في الإقلاع عنها منذ عام.

دخلت دار الجار ثم توقفت... إن لمْ تكن بالبيت، أين ذهبت؟ «سأنتظرك هنا، أو أمام الدار؟» قالت قبل تركنا البيت، لابد أنهم اختطفوها، بلى لا يوجد تفسير آخر. اختطفوها ثم أحرقوا الدار لينشغل الناس بالحريق.

فجأة انقلبت أحشائي واختلطت. شعرت بحالة غثيان لم أسيطر عليها وركضت للحمام. أحسست بألمٍ كما لو أن معدتي التصقت جدرانها، فسبَّبت ألمًا لم أعرفه من قبل، فصحتُ بلا إرادة مني.

هرع الجار صوبي وهو يصيح بابنه ان يتصل بطبيب أو بالإسعاف، وهو يمدني بكأس ماء. فأشرت له أن لا يفعل:

- أنا بخير.

... همستُ بصوت واهن.

قادني لغرفة الضيوف، جلسنا على الأرض التي فرشت سجادة رخيصة ووضعت بعض الوسائد نتكئ عليها، بعد أن باع أبو حميد أثاث الغرفة ليدفع إيجار البيت الذي يسكنه.

طلب من زوجته أن تعمل شاي ليمون أو أي شيء مهدئ.

- اهدأ قليلاً... ما الذي يشغلك؟ لقد طمأنك الرجل على البيت... هل كان هناك شخص في البيت؟ لكنهم لم يجدوا أثرًا لأحد... إذن قد يكون خرج أو هرب من الحريق... لكن المفروض أن يبقى بانتظارك، أن يساهم بإطفاء الحريق على الأقل...

- هل هو من أقربائك؟ من غير المعقول أن يكون هو من فعل ذلك، أي هو من أشعل النار في البيت وهرب!

... سأل أحد الحضور.

تطلعت لهم بذهول لا أدري بما أجيب:

- مستحيل...

قطعت كلامي وأنا أسمع طرقًا على الباب.. سمعت ماجد يقول «تفضل» تطلعت، كان جبار... شعرت كما لو كنت أغرق في بحر وفجأة يظهر ذلك القارب. عانقته وجلسنا وهو يسأل بحذر عما حصل. ثم دخلتْ أم ماجد بكؤوس الشاي الصغيرة (الاستكانات)، مع كوب شاي الليمون لي أنا.

- الله يساعده... كانت خضة كبيرة.

ثم التفتت لي وهي تمدني بكوب الليمون:

- الحقيقة لولا المرأة الغريبة، المتسولة، لما لحقنا أن نطفئ النار بسرعة».

تساءلتُ:

- أي امرأة تلك؟

فأجاب عنها زوجها:

- نسيت أن أخبرك عنها... طرقتْ بابنا بحدة أرعبتنا فهرعْنا كلنا، كانت تغطي وجهها وصوتها خائف ومرعوب. اعتذرتْ بالبداية ثم قالت بسرعة وخوف: هناك أشخاص في البيت المجاور لكم، طرقتُ بابهم للمساعدة

فنَهروني صارخين بي، وصفقوا الباب بوجهي، وسمعتهم يقولون لبعض: « اللعنة... لنحرق البيت، ليكونوا درسًا» فهرعتُ لكم قبل أن يدمروا كل شيء... ونحن بين مصدق ومكذب لكلامِها. اختفت هاربة أو ربما تستجدي من مكان آخر... ركضنا لبيتكم ورأينا النار تشتعل فعلاً.

التفتَ جبار لي:

- أين أمك... وهدى؟... هل حقًا أخذتَها معك للبيت؟ كنتُ مسافرًا وعدت بالأمس وأذهلتني الأخبار اليوم، يعتقدون بموتها... ما الحكاية؟ لم تخبرني عن فكرة أخذها معك.

- أمي مع صديق لي... لابد أن أخبره لأطمئنه، فحتمًا سمع الأخبار هو الآخر... هدى، لا أدري هل تمكنتْ من الهرب، أم اختطفوها؟ أنا قلق عليها.

حكيتُ له ما حصل باختصار، أنها كانت فكرتها أن أبعد أمي...

- لم أسألها كيف ستدبِّر حالها، كنت أشبه بمن يتحرك وهو نائم.

ثم أخبرته عن شكوكي بالشرطي ومن كان معه. لكن جبار فاجأني بتفسير آخر:

- ربما هي تعرفهم فعلاً، لكنها قد تكون متفقة معهم وافتعلت قصة قلقها على أمك لتهرب... هي هربت فعلاً ليس من الحريق بل من القضية كلها، فبعد الحريق سيظنون بموتها وستتمكن من التخفي أو السفر بطريقة ما، ففي حالة الفوضى السائدة الآن، بإمكانك أن تخفي أو تمرر جملاً دون إثارة الشكوك.

- لكن كان بإمكانها الهرب من قبل، وقد كانت جاهزة للسفر ولن يتمكن أحد منها، وبلا خطط فاشلة.

- ربما... ولكن لابد أنها كانت مرتبكة لا تعرف كيف تفكِّر، بل الإحساس بالذنب الذي دفعها لتسلم نفسها، قد خفَّ الآن وقد استعادت وعيها، وظهرت قناعتها أنها فعلت خيرًا، وقد خلَّصتْ المجتمع من أحد الأشرار.

- معك حق... كذلك استعادت ثقتها بالحياة ولم تعد فكرة تقبل الموت تراودها... أو ربما لتنتقم مني وتعرِّضني للمشاكل بعد موقفي السلبي منها.

ثم هتفتُ وأنا أستعيد صورتها قُرب النهر:

- مستحيل... ما نقوله هراء، كان بعينيها خوف حقيقي وقلق على أمي... لنذهب من هنا بسرعة فما عاد بمقدوري أن أفكِّر بشكل منطقي.

نهض جبار معتذرًا:

- يجب أن نذهب الآن، لابد من تبليغ الشرطة... شكرًا لجهودكم.

ثم أعطاهم رقم تلفونه لمكالمته في حال سماع أي شيء أو ملاحظة عن البيت.

نهضتُ معه، أردتُ أن أخرج بسرعة وقد شعرتُ باختناق. عانقتُ أبا حميد وأبا ماجد وباقي الجيران وأنا أشكرهم لإنقاذ بيتي.

- معي سيارة تركتها بعيدًا، لم أستطع إدخالها وسط الفوضى.

فتذكرتُ أن أسأله:

- كيف عرفت بالحادث؟

- من الأخبار... كل القنوات تتحدث عن الموضوع... أنت تعرفهم يتشَمَّمون أي خبر فيه كارثة أو مصيبة.

- هذا جيد... لولاه لما رأيتك وأنا وسط هذه الحالة الكابوسية، لا أعرف كيف أفكِّر... لا أعرف ما الذي حصل لهدى... أنا قلق لحد الرعب عليها... ماذا أفعل؟

- لابد أنها هربت.

في هذه الأثناء لمحتُ ظل امرأة تتبعنا، التفتُ لها كانت تمد يدها من فتحة عباءتها وتغطي وجهها بنقاب. شعرتُ بغضب كدتُ أصرخ بها، تلك الكائنات التي تكاثرت في الآونة الأخيرة. قد لا تكون متسولة، بل ربما هي منهم جاءت للتأكد من نجاح الجريمة. هذا الخاطر جعلني أصرخ بوجهها:

- نعم؟ ماذا تريدين؟... روحي، الله لا ينطيك.

سمعتُها تهمس:

- آسفة.

ثم تذكرتُ ما حكوه عن المرأة المتسولة، لابد أنها هي... فسارعتُ للاعتذار منها:

- أنا آسف، هل أنتِ من رأى الحادث؟

فهزَّتْ رأسها ثم أسرعت معنا للسيارة.

فكرَّتُ لابد أنها تريد أن تقول شيئًا. ما إن فتح جبار السيارة اندفعتْ داخلها، وسط دهشتنا، انحسرت العباءة. ثم صحنا معًا:

- هدى؟؟؟

بقينا خارج السيارة، ننظر لبعضنا بذهول! كانت تنتظر أن نركب لننطلق بالسيارة:

- هيا رجاءً، أنا مرهقة وخائفة.

تضاربت مشاعر عديدة وتشابكت بين خوف وفرح ورعب وقلق:

- هدى... الحمد لله... أنتِ بخير.

التفتُ لجبار كأني أستنجد به، ثم جلستُ بالمقعد الخلفي بجانبها، عانقتُها وأنا بين الشك واليقين، لمحتُ دموعها تنهمر وهي تهمس بالاعتذار:

- آسفة لما حصل لبيتك.

قبّلتها بلا وعي من عينيها وأنا أهمس:

- فداكِ.

ثم انتبهتُ لضرورة انتقالي للمقعد الأمامي قُرب جبار، فابتسم وهو ينظر من المرآة الامامية وأشار لي أن أبقى مكاني، وأسرع بتشغيل السيارة.

اندفعتْ يدي لتحتضن يدها، ترددتُ وقد تذكرت إصبعها المكسور. تأملتُ وجهها، لمحتُ بعض الحروق على جبينها وبعض الخدوش والجروح قرب عينيها.

- طمئنيني، هل أنتِ بخير؟

هزَّتْ رأسها، ثم احتضنتْ يدي ورفعتها لفمها، قبلتها بهدوء ثم همست:

لتجلس بالأمام حتى لا تثير الشكوك.

أوقفت السيارة لأنتقل للمقعد الأمامي، وأدرتُ جسمي للخلف، كنتُ بشوق جارف لها، أو لأتأكد أنها بخير حقًا وأنها سالمة ولم تهرب كما توقعنا. أنتظر لحظة وصولنا لتحكي لنا عما حصل.

- يعني أنتِ المرأة المتسولة التي قالت عنها أم ماجد؟

... سألتُها ضاحكًا.

أستعجل الدقائق لنصل لبيت جبار، لا أدري ما أنا فاعل، المهم ثقل القلق عليها قد انزاح عن كاهِلي. ليذهب البيت، القضية، وكل شيء للجحيم.

اقترحتُ عليه أن يكلِّم المركز بالتلفون، لا أريد أن أذهب لهم الآن...

- قل لهم إننا هربنا بعيدًا، وإنني لن أعيدها لهم حتى أتأكد من قدرتهم على حمايتها.

بيته في ضواحي المدينة، بعيدًا عن فوضى المسحوقين، وحقد الموتورين، تنعم بالهدوء بالرغم من مظاهر التخريب الذي طالها هي الأخرى وقد بدا واضحًا في الشوارع والنفوس.

ما إن دخلنا، نسيتُ نفسي وعانقتُها، لكنها انتبهتْ لجبار فأشاحت بوجهها الذي احمَّر خجلاً، أو لأنها صارت تبكي. ذهب هو إلى المطبخ لإحضار ما يمكن شربه أو أكله، ثم اتصل بمطعم قريب منه وطلب بعض المشويات.

كان لوحده، فقد أرسل زوجته وأولاده للخليج لدى عمه الذي يشتغل هناك منذ سنين، ليضمن سلامتهم.

بقيتْ تلتحف عباءتها، كأنها لا تقوى على إزاحتها. هدأنا قليلاً بعد ما شربنا عصيرًا باردًا. أخذتُ قطعة من الثلج مسحتُ بها جبيني ورقبتي.

اقترح جبار عليها أن تذهب للحمام تغتسل لترتاح، ثم غاب لحظات وعاد يحمل قميصًا وسروالاً نسائيًا:

- هذه بعض من ملابس زوجتي... أو اختاري ما يناسبك من دولابها، فهناك الكثير مما لا تلبسه بعد أن زاد وزنها بمجيء ابننا الثاني، لكنها بقيت محتفظة بها اعتزازًا، أو على أمل أن يعود الشباب يومًا.

ابتسمتْ وشكرته وهي في طريقها إلى الحمام. طلبتُ منه أن يحضر بعض المراهم الطبية لمعالجة بعض الحروق الخفيفة على جبينها.

- تختلف عما في الصورة التي نشروها لها، إنها جميلة، ويبدو عليها إنها قوية بالرغم من الإحباط والحزن.

ضحكتُ وأنا أشكره، ثم سألتُ تداركًا:

- من تعتقد فعل ذلك؟... أقصد الحريق.

- أكيد لم يقصدوك أنت... بل هي، ربما أرادوا إسكاتها، لكي لا يسمع أحد تبريراتها أو قناعاتها، كما قلت، أو قد تكون مجرد رغبة بالانتقام من قبل أهل القتيل أو أصحابه.

بعد لحظات حضر الطعام، رائحته حرَّكت عصافير الجوع التي تذكرت

إنها لم تأكل منذ الأمس. تطلعنا معًا لمرآها وهي ترتدي السروال والقميص بلون سكري. أشاعت بالمكان عطرًا خفيفًا ربما هو الصابون. قدَّم لها جبار كأسًا. ثم التفت لي:

- دورك الآن لتغسل وجهك لترتاح، ونأكل قبل أن يبرد.

ثم التفت لها:

- اعتبري نفسك في بيتك، والخزانة هناك تحت أمرك اختاري منها ما شئتِ... أنا واثق لو أن زوجتي هنا لاقترحتْ الأمر ذاته.

شكرتْه وقد احمَّر وجهها خجلاً. اقترب منها ليعالج بعض الحروق على جبينها والجروح التي بدت أقل خطورة بعد الغسل.

حين خرجتُ من الحمام كانا قد هيّئا طاولة الطعام وأضافا بعض السلطة عملتها هي. سألتني حالما جلستُ:

- كيف خالتي؟

هنا تذكرتُ أني لم أتصل بصديقي عباس، فأسرعت للتلفون قبل أن أجيبها.

عدتُ سريعًا...

- إنها بخير... الحمد لله لم يسمعوا الأخبار بعد، أو صديقي أخفاها عنهم... المهم أنتِ، لا أستطيع الصبر أكثر، أريد أن أعرف التفاصيل.

- سأقول لكم كل الحكاية... لكن قبل ذلك لابد أن أعود للمعتقل، على الأقل لو كانت هناك خطورة ستكون محدودة وضدي أنا فقط... إذا بقيتُ

قد أسبِّب لكم الأذى.

- لم يسلم أحد من الأذى اليوم، بذنب وبدون، فلا تحمِّلي نفسك مسؤولية ما حصل، كان سيحصل بك وبدونك... على الأقل أنتِ بادرتِ.

قاطعني جبار:

- أقترح ترك الحديث بالأمر لبعد العشاء.

تناءت رغبتي بالأكل، وربما هما أيضًا، لكنا أكلنا بشكل آلي، كنتُ أستعجل اللحظات لسماع تفاصيل الموضوع. كيف عرفتْ أولئك الرجال الذين رأتْهم مع الشرطي؟ هل رأتهم من قبل؟ الحمد لله لم تكن متفقة معهم كما اعتقدنا... هدأ غضبي وانفعالي وأنا أتذكر صورتها بالنقاب والعباءة، فضحكت عاليًا، تطلّعا لي بدهشة...

- من أين أتيتِ بالملابس تلك؟ كدتُ أشتمك حين لمحتُكِ تتبعينا.

نظرتْ لي بأسى وابتسامة شفافة رسمت على وجهها الذي رأيته قد تورد فبدت جميلة حقًا. بل تمنيتُ لو أن جبار لم يكن هناك وقتها لأقبِّلها وأُعانقها وأعتذر لها، وأصرخُ عاليا أني أحبها. بلى أحببتها، الآن أم قبلاً، لا أدري... لحظتها شعرت وكأني أنا المريض وهي الطبيب النفسي لأتعلقُ بها. ربما اهتمامي وقلقي عليها جعلاني أفسِّر تلك المشاعر الإنسانية على أنها حُب!

- لقد أخذتُها من خزانة خالتي، أمك... كم أنا آسفة لما سببتُه لها.

كنتُ أنتظر بفارغ الصبر أن ننتهي من العشاء لتبدأ رواية القصة أو

الأحداث، فنهضتُ قبلهما، واتجهتُ للمطبخ:

- سأعمل شاي لحين ما تكملان العشاء.

جلبتُ صينية بالأكواب مع القوري (إبريق الشاي)، فنهضتْ هي ترفع الصحون وتبعها جبار بما تبقى. ثم جاءني بمسجِّل صغير...

- سجِّل حديثها قد يفيدنا، وننشر البعض منه، قبل أن يكتشفوا فشل خطتهم ويحاولوا قتلها مرة أخرى.

تذكرتُ المسجل الصغير الذي معي، فأخرجتُه من الحقيبة لأسجِّل عليه أيضًا.

ابتسمتُ لها مشجعًا... جبار اعتذر ليتركنا بعض الوقت:

- لم أنم ليومين، سأنام نصف ساعة فقط.

- لا تهتم لنا، نحن أيضًا سننام بعد قليل... ربما.

كنتُ مرهقًا تمامًا، ولكن من يدري قد لا أجد فرصة أخرى لأكون مع هدى، ربما سيصعبْ علي مقابلتها فيما بعد، قد يعرقلون مقابلتي لها.

- هل تريد أن نؤجل الحديث ليوم آخر؟، فأنت متعب تمامًا.

... سألتْ بهمس.

- أنتِ أيضًا متعبة... سننام بعد أن تخبريني عن ما حصل اليوم، فلا أقدر أن أصبر أكثر، ثم غدًا سنذهب للمركز ولا أدري ما الذي سيحصل بعدها... لم تعد لي ثقة بالأيام.

نهضتْ ووقفتْ قُرب النافذة تنظر للشارع، أو لتهرب من المنظر الذي

ستحكي عنه... لمحتُ ارتجاف كتفها، اقتربتُ منها، كانت تبكي، طوقتُ كتفها بذراعي.

- كيف حال كفكِ؟

... سألتُها وأخذت كفها بيدي برفق.

- أحسن بكثير.

تركتُ يدها حين لاحظتُ تعبير وجهها وقد أوحى لي انها مازالت تحس بألم. قدتُها لنقعد على الأريكة. أكاد أتوسّلها لتتكلم، ولكني سيطرت على تسرعي لئلا أتسبب بإزعاجها وقد تنفعل ولن أحظى بما أريد.

- أنا خائفة.

... همست وهي تنظر إلي.

شعرت وكأنها طفلة تستنجد بأبيها، وعيناها تملأهما الدموع. طوَّقتُ كتفها بذراعي وقبَّلتها من رأسها:

- لا تخافي، كلنا معكِ؛ أنا وجبار وأمي... المهم كيف عرفتِ بهم؟

- لم أقدر أن أنام، فصرتُ أتطلع من الشباك، كان الظلام يلفُّ كل ركن في الشارع، فلا أدري لم شعرت بخوف لم أشعره من قبل، المفروض أني تعودت الظلام وقد عدنا لعصور ما قبل الكهرباء، نعتمد على ضوء القمر أو النجوم. تمددتُ وغطيتُ رأسي بالشرشف لطرد أشباح الظلام... لا أعرف إن كنتُ نمتُ أم لا، لابد أني نمتُ، فقد انتبهتُ لأمك تنهض لتصلي الفجر. أسرعت للشباك بدون سبب ما، فلمحت الشرطي يحمل مصباحًا

يدويًا وهناك رجلان يتحدثان معه وهو يشير صوب الشباك، انسحبتُ بسرعة بالرغم من تأكدي أنهم لا يروننني... ثم عدتُ ببطء، وأنا أتساءل من عسى أن يكونا!... لمحت أحدهما على ضوء المصباح، لكنه أبعده عن وجهه، فجأة تذكرتُ أني رأيته في مكتب المدير، بلى سلَّم بعض الإيصالات والأوراق له. يومها انتهزت فرصة خروجه معه فاطلعت على الوثائق بسرعة وكأني أبحث عن استمارة ما، فكانت عن صفقات أسلحة، واسم منصور عليها. لم أقدر أن أطلع على التفاصيل، فقد عاد المدير وجمع الأوراق كلها وذهب إلى السيد منصور. تطلع لي وقتها بشكل غريب، ابتسمتُ له وكأني لا أفقه من الأمر شيئًا... ما الذي جاء به وكيف عرف عن وجودي هنا؟ حسمتُ الأمر إن وجوده بمثل هذا الوقت له علاقة بالقضية، ولابد أنه عرف أن قتلي لمنصور لا علاقة له بحُب فاشل أو خيانة وهمية، بل هو أعمق وأكبر من ذلك، فخاف أن أكون على إطلاع على خبايا بعض تلك الصفقات العلنية والمستترة، والحقيقة أنا لا أعرف الكثير... أو قد يكون جاء لينتقم لصديقه من تلك التي تجرأت على ارتكاب جريمتها لتقتل الذي سمح لي بانتقاده ومناقشته وهو ما لم يفكر فيه أي من أصدقائه... ارتبكتُ وصار تفكيري بطيئًا، ما العمل؟ هل انتظره يطرق الباب؟ هؤلاء لا يطرقون الأبواب ولا يستأذنون، بل يكسرونها ويقتحمون المنازل... تذكرتُ بعض الأفلام التي تلجأ العصابة لتهديد المعني من خلال اختطاف ابنه أو زوجته أو أمه، ارتعبتُ من فكرة أن يأخذوا أمك ويهدِّدوك، فراعتني صورتهم وهم يعذبونها، فهم بلا مشاعر ولا علاقة لهم بالبشر... أو حتى

لو سلمت نفسي لهم، من يضمن إنهم لن يؤذوك أو خالتي... يعرفون إني بلا دليل ولا إثبات لتلك الصفقات، لكن ربما هو الخوف من كشفها وفضحها... صفقات مع دول يدعون نهارًا جهارًا لمقاطعتها ومحاربتها، مع إن تلك الدول تحتضن العصابات التي امتهنت القتل البربري ويتعاملون معها، فتلك الدول هي من تمولهم بتلك الصفقات، بما فيها الأموال التي ينشئون بها مؤسساتهم... ذلك السيناريو تملَّك كل تفكيري، وصار كأنه قريب جدًا، لابد من اتخاذ قرار سريع، ما هو؟ هل أهرب، إلى أين؟ نهرب للجيران، كيف؟ ثم فكرَّتُ بذلك الاقتراح أن تبعد خالتي من المكان بأي صورة... الخوف الأكبر حينها، أن تسخر مني ومن خوفي وظنوني، وقد تسخر من كلامي ولا تصدقني، لكن الحمد لله سهل المهمة واقتنعتُ بالأمر وأن لدي إحساس، أنك كنت شبه نائم، وإلا كنت ستتردد.

ابتسمتُ:

- فعلاً، ربما سأنزل لهم وأسألهم عما يريدون... المهم ماذا فعلتِ بعدها؟ كيف تمكنتِ من الهرب؟

- في البداية قلتُ: ليأتوا. ألم أكن أنتظر الموت سريعًا؟ لكن شيئًا ما يحرِّكنا في تلك اللحظات، شيء يشبه رمشة العين حال تعرضها لأذىً ما، هناك شيء يحرِّك جسمنا، وكل عضو بنا يصبح متحفزًا وجاهزًا لرد الفعل وخلال ثواني. هي غريزة حب البقاء، حب الحياة، وهي أكثر الغرائز التي خلقها الله فينا، حيوية وقوة، جعلها كذلك لتَواصل الحياة واستمراريتها... أفكِّر أحيانًا كيف استطاعوا انتزاع تلك الغريزة من نفوس الشباب؟ كيف

خدَّروهم وأوْهموهمُ أنهم سيجدون أبواب الجنة مفتوحة لهم؟ يتحركون بلا وعي، يحوِّلون أجسادهم لسلاح، لقنابل يقتلون وينتزعون الحياة من عشرات أو مئات من البشر الأبرياء... ماذا يختلفون عن أولئك الذين يرمون قنابلهم من الأعلى يفتكون بأكبر عدد ممكن من الأجساد والأحلام، دون أن يرف لهم جفن أو ضمير.

نهضتْ... لكنها عادت تجلس مرهقة، عيناها حمراوان وهي تقمع الدموع بهما فتفلت بعضها بلا إرادة منها. كنتُ متلهفًا لأعرف كيف نجت منهم، كدتُ أوقفها وأقول لها: لا وقت للحديث عن فلسفة الحياة والوجود. الحمد لله أني لم أفعل، فقد يكون هذا أخر يوم تتحدث به بسلاسة وتداعي، وقد تعاودها حالة الصمت إياها.

نظرتْ لي وفي عينيها ابتسامة ودٍّ أو شوق من الذي أحاول قمعه الآن، فابتسمتُ مشجعًا ومددتُ يدي أمسح دمعة فرَّتْ من عينيها.

- فكَّرتُ بك، ماذا ستفعل لو عدتَ ولم تجدني، كيف ستكون ردة فعلك... كنتُ هناك أتطلع للحزن والألم، ولمستُ كتفك حين صرت تصرخ بهم شاتمًا لاعنًا إياهم، لكنك لم تنتبه لي... في ظل ذلك القلق، انتابني شعور بالفرح أن هناك من يفتقدني، ويؤلمه فراقي... ثم ابتعدتُ، أنت عاطفي، فقد تفضح الحالة، ربما هناك من أرسلوه يستطلع النتائج.

- حقًا كان خوفك في محله، في تلك اللحظة كنت بحال من الرعب أن أفقدك هكذا وأنتِ أمانة عندي، حتى حين أكَّدوا خلو البيت من أي إنسان، بقي الخوف ماثلاً أمامي... المهم هل رأيتهم يدخلون البيت، يهاجمون؟...

جبار يؤكد أن بالإمكان رفع دعوى ضدهم.

- هل ستنفع دعوى ضد هؤلاء، في ظل هكذا فوضى؟

- المهم أن لا نسكت... أنتِ فعلتِ أكثر من ذلك، على الأقل أنتِ الآن سببٌ يفضح كذبهم وسلوكهم الإجرامي.

... أجبتُها حاسمًا الأمر، فلن نصل لنتيجة، حتى لو بقينا نتجادل، لوجه الصبح.

- في اللحظات الأخيرة، صِرتُ كلي آذانٌ، تضخِّم الأصوات... أتطلعُ حولي ما الذي يفعلونه؟ هل يخربون البيت؟ يسرقونه بعد قتلي ربما، لتبدو وكأنها جريمة سرقة... لم يخطر ببالي أنهم سيحرقون البيت بمن فيه. هذا ما فعلوه، اعتقدوا إننا في البيت فأحرقوه... لبستُ عباءة أمك التي في المطبخ، ثم لففتُ شعري بإحدى الفوط التي تغطي شعرها واستخدمتُها كخمار أيضًا وتسللتُ، فكَّرتُ أن أترك لك ملاحظة، لكني شعرتُ بأقدامهم تقترب، فأسرعتُ لأهرب لأقرب مركز ومن هناك قد ينقلوني... تجمدتْ قدماي ولم أستطع المضي وأنا أراهم يتجهون نحوي، ظننتُ أنهم تعرَّفوا عليّ، لكنهم صرخوا: «ماذا تريدين؟ ابتعدي من هنا»... ابتعدتُ وشعرت كما لو أنهم يسمعون دقات قلبي، فأسرعتُ لجيرانكم بيت أبي حميد أو أبي ماجد، أوشكت المرأة أن تغلق الباب بوجهي، فصرختُ بها: «جيرانكم... أشخاص هاجموا بيت جاركم»، وأسرعتُ مبتعدةً عنهم، ثم صرختُ بأعلى صوتي وأنا أرى النار تمدُّ ألسنتها من النوافذ. صرختُ بباقي الجيران وأنا أطرق أبوابهم، فهبّوا دون تساؤل حين رأوا النار... وقفتُ أبكي

لا أعرف ماذا أفعل «بسرعة الله يخليكم. انقذوا البيت. الكلاب فعلوها وهربوا» أوشكتُ أن اقول لهم إن البيت خالٍ، لكن خفت أن يتساءلوا كيف عرفت! وربما اعتقادهم أننا هناك جعلهم يسرعون بإطفائه.

- أم ماجد كانت تعرف أني خرجتُ مع أمي، حسب ما ذكروا لي.

... قلتُ مؤكّدًا كلامها.

- بقيتُ أصرخ وأبكي، جلستُ في ركن الشارع أنتظرك، ما عاد يهمني شيء، تأسفتُ أن يحصل ذلك بسببي، هكذا كل من يفكّر أن يساعدني يناله الأذى.

عادتْ لتقف قُرب الشباك، تتأمل الشارع لتخفي وجهها. وقفتُ بجانبها:

- لا تقولي ذلك، أنتِ أنقذتِ بيتنا وأنقذتني وأمي، بل أنقذتني من إحراج ممكن أن أتعرض له، لولا انتباهك لخسرنا كل شيء، أو ربما لما كنا هنا.

- وكان يمكن أن لا ينالك أي شيء من الأذى وما كنتَ ستقلق وتتعذب، لو لم تتبنى قضيتي.

أخذتُ وجهها بين يدي:

- هناك المئات ممن يتعرضون للأذى كل يوم وبلا سبب، من يضمن أن لا أكون واحدًا منهم؟. على الأقل أذاي الآن له سبب منطقي، وأنا فخور حقًا بمحاولتي، عسى أن أقدر أن أنقذك حقًا، وتبدأين حياتك من جديد، حياة كلها أمل وفرح.

نظرتْ لي بابتسامة وهي تتجه للمطبخ:

- سأعمل قهوة، وأنت أدخل لتنام قليلاً.

سبقتُها ضاحكًا:

- أنا من سيعمل القهوة، لا تقدرين أن تعمليها بيد واحدة.

خرجنا بعدها للحديقة، أصوات انفجارات وطلقات تنقلها الريح من بعيد، لم يعد يفزعنا صوتها، وإن كنا نعرف، أن بسببها هناك حلم يُقتل وحياة تُسرق. شهور حُرمنا بها حتى من الخروج لحدائق الدار.

تطلعتْ للنجوم القليلة التي بدتْ تتلامع بعد حلول الظلام، بفرح طفولي:

- أكاد أرى أيام طفولتي... حين كنا نسهر، نتأمل النجوم ونحاول عدها... أستاذ بشير: هل لك أخوة أو أخوات؟

ابتسمتُ لسؤالها أو من مخاطبتي بـ»أستاذ»، فالحقيقة لم أسمعها تناديني من قبل.

- بلى، لي أخوة سافر اثنان منهم، وأخواتي كلٌّ مع زوجها في مدينة أو بلد ما... ثم أحب أن تناديني بشير فقط.

ضحكتْ وقد احمرت وجنتاها وواصلت الحديث دوت تعليق على ما قلت:

- كانت أجمل لحظات حياتي وذكرياتي، هي تلك التي أختلي بنفسي فوق السطح، بعد أن أرتِّب فراش أهلي وأخوتي في الصيف، أبقى هناك

أتأمل السماء وقمرها ونجومها، أتحدث للقمر، بل أقول له شِعرًا، وكم أتضايق منهم وهم ينادونني للعشاء، أضطر للنزول، آكل قليلاً ثم أسرع لأعود بحجة الدروس، كما لو أني على موعد مع الحبيب... كان بيتنا صغيرًا؛ غرفتين مع صالة، وكبرت عائلتنا أخوتي الثلاثة، وعمتي انضمت لنا بعد خصامها مع زوجها، لم يكن هناك مجال للدراسة غير السطح... كنتُ أشعر بفرح ومتعة مَنْ يشاهد فيلمًا رومانسيًا وأنا أتابع بعض الفتيات على سطوح أخرى يسرقنَّ لحظات للحديث مع ابن الجيران، أو يهربنَّ من معاكسة أحدهم.

جلستْ على العشب وهي تتطلع للسماء وابتسامة عريضة ملأت وجهها وأزاحت غيوم الحزن والأسى عنه. لابد أنها تذكرت ابن الجيران!

- وأنتِ، ألم يكن لك معجبون، ابن الجيران مثلاً؟

... سألتُها بمزاح وقد تغيَّر مزاجنا، واحتضنتُ كفها بشوق. سحبت يدها من يدي بهدوء:

- للأسف لا، كنتُ مشغولة بالقراءة والدراسة، علاقاتي كلها لم تتعدى الخيال والحلم، حتى صداقاتي كانت محدودة جدًا، ربما بسبب أهلي، أو هو الحظ الذي يخاصمني بلا سبب.

- أرجوكِ لا تقولي ذلك، أنتِ متفوقة وناجحة، وصِرتِ مشهورة.

... قلتُ مازحًا.

- بلى معك حق، مشهورة لدرجة أن البعض يخطِّط لقتلي... قتلتُ

إنسانًا لم يخطر ببالي يومًا أن أسبِّب له الأذى حتى في أقصى سريالية أحلامي وغضبي... هناك أمور لا يمكن تفسيرها بغير الحظ.

- دعينا من هذه النغمة... كنا في عوالم الرومانسية منذ قليل، فلا تأخذينا للعتمة... وإلا سأرسلكِ للنوم.

- لم يكن لي صديقات، لا في المدرسة ولا في شارعنا، فصرتُ أعوِّض ذلك بالدراسة، صمَّمتُ على التفوق، كنتُ أحب الطب، وحرصت أن أبذل كل جهدي لأضمن ذلك، فصار ذلك حلمي وأملي، لفرض احترامي على الكل، وربما لأغيظ البعض، أو لأدع البعض يسعى لصداقتي... ولأرضي أبي ولأثبت له إن ابنته (الفتاة) فرضت احترامها على الجميع بنجاحها... كنت أريد أن يكون فخورًا بي... وقد صار يساعدني ويهتم بي في وقت الامتحانات بعدما عرف إصراري على ذلك.

صمتتْ لحظات ابتعدتْ ابتسامتها لتحل محلها غيمة حزن وأسى...

- في أخر سنة من الثانوية وأثناء التحضير للامتحانات النهائية، تعرَّض أبي لحادث، ورحل مبكرًا... الصدمة جعلتني ألغي موضوع الدراسة، بل الحياة كلها، فلمن أتفوق أو أنجح بعده... مع ذلك واصلتُ، لكني لم أقدر أن أحصل على المعدل المطلوب، فدخلت كلية الإدارة والاقتصاد.

- لابد أن فترة الجامعة كانت جميلة وحافلة بالعلاقات، فكثير منا كان يعقد آمالاً على الجامعة لتحقيق حلمه الرومانسي.

... ابتسمتُ لها وأنا أتخيل أيامها تلك وأربطُها بذكرياتي الجامعية.

- لابد أنك أحببتَ حينها.

... سألتني بفضول... أحببتُ أن أخبرها عن تلك التجربة، لكن شيء ما جعلني أتردد، ربما للخيبة التي أشعرها وقد أقسمتُ أن أنسى كل تفاصيلها. أو أني خفت أن يتغير مزاجها، وقد يداهمنا الصباح ولم أسمع قصتها كلها، أريد أن أعرف عن إخوتها، لماذا لم يسأل أحد عنها. ربما سألوا ولم نهتَدِ إليهم.

- كانت محاولات فقط، فقد خاب ظني، لم أجد من تستحق مشاعر الحب الذي كنت أراه كنزًا لا يمكن أن أمنحه لأي كانت.

ارتحتُ كثيرًا لهذا الجواب، ولو فيه بعض الكذب، فقد منحتُه يومًا لمن بعثرتْه كما تبعثر أشياءها غير المهمة... قد تكون كرامتي لم تسمح أن أبدو فاشلاً أمامها. ربما هي مشاعر الحب التي تملكتني إزاءها... ثم تابعتُ لأقطع عليها أسئلة أخرى:

- وأنتِ لابد أنكِ كنتِ أكثر حظًا مني.

- إذا كان لك محاولات، فأنا لم تكن حتى هذه... خاب ظني بالجامعة نفسها، كنت أعول عليها أن أجد بها تعويضًا عن حرماني من العلاقات الإنسانية، من الصداقة التي أحلم بها، بل تصورت أجواءها كما رأيتها بالأفلام كلها حيوية ونشاط، وفعاليات ونشاطات سياسية، تصورتُ عالمًا أفلاطونيًا لخلية تسودها المحبة والأخوة ونقاشات لا تنتهي... بل كنت أهيئ حوارات وأجوبة تصورتها... كانت صدمة أخرى، لم أجد أي خيال

أو ظل لتلك الصورة التي رسمتها بعض الأفلام والكتب، تجمعات وتكتلات وكل مجموعة لا تحمل أي فكر أو موضوع فيه شيء من الحيوية بالرغم من الأحداث التي تحيط بنا، ربما هو الخوف من الذين كانوا ينصتون لكل ما يدور من أحاديث بين الطلاب ويكتبون التقارير... كان الجو فيه تشنج وقلق، لذا وجدتُ نفسي بعيدة عن الكل، شبه معزولة، لا يسعدني سوى بعض النقاشات التي تدور خلال المحاضرة، لأني الوحيدة التي أشارك فيها، ربما لأني كنتُ أقرأ كثيرًا، فقد وجدتُ ضالتي بالكتب بل وجدت نفسي أحب البحث ودراسة ما يتعلق بالاقتصاد وتحكم النظم السياسية فيه، ونسيتُ الطب تمامًا. لأفاجأ بتعليقات الزميلات والزملاء، كل ما أمرُّ بقربهم يسمعونني كلمة ما، لم أفهم مقاصدهم، فقد كنت أتغاضى أو أتحاشى الحوار معهم، لأفاجأ بتهمة انتمائي لحزب مغضوب عليه! ضحكت منهم، ربما كانت تلك المرة الوحيدة التي ضحكت بها من القلب خلال السنوات تلك.

- وماذا عن الزملاء؟... ألم يكن بينهم من ارتحت لهِ؟

- لم تكن بيني وبينهم غير حوارات عن المواد وتلميحات عن بعض ما يدور من أحداث، أعتقد أنهم كانوا يتجنبون الحديث معي هم أيضًا، لا بسبب انتمائي الوهمي لحزب ما، بل... لأنني كنتُ متزوجة.

قاطعتُها مذهولاً:

- ماذا؟... كنتِ متزوجة؟ لم تقولي ذلك من قبل، وأين زوجك الآن؟ هل... مات؟

أمطرتُها بأسئلتي، فقد أفزعتني تلك المعلومة التي لم تخطر على بالي.

- بلى، تزوجتُ خلال العطلة الصيفية في نهاية السنة الأولى... لم يمت، مازال حيًّا يُرزق.

صمتتْ وهي تضحك بشيء من السخرية، سخرية من الفكرة أم من دهشتي. هل قرأت الخيبة في نظرتي؟

- عدتُ يومًا من مكتبة عامة، سألتهم عن عمل لديهم خلال العطلة، تمنيتُ أن أعمل لأساعد أخوتي، وأخي الأكبر رفض إكمال دراسته بعد وفاة أبي، وصار يشتغل موظفًا في البدالة... شعرتُ بفرحٍ غامرٍ لوجود عمتي وابنتها الكبرى ومعهما ضيوف؛ ناس لم أعرفهم ولم نلتقِ بهم من قبل، امرأة ضخمة جميلة، وزوجها رجل نحيل ونظرته فيها ابتسامة طيبة، وابنهما... كان وسيمًا جدًا، طويلاً بجسم رياضي وسحنة سمراء وملامح قوية جذَّابة كممثل سينمائي... خفق قلبي لرؤياه ولكني لم أرتح لنظراته، كان فيها بعض من الوقاحة والغرور، وأمه أيضًا نظرتها فيها محاولة لاكتشاف شيء ما فيّ... اعتذرتُ منهم لأسرع للمرآة، خفت أن يكون هناك حبر على وجهي أو شيء ما. ثم انسحبت لغرفتي، فلم يكن لي مزاج للتعرف على ناس أغراب ولم أرتح لنظراتهم، فوجئت بعمتي تعاتبني على تركي لهم وتلح علي أن أغيِّر ملابسي وأعمل لهم شاي بالهيل... عرفت منها أنه أستاذ في كلية الرياضة البدنية، له علاقات كثيرة مع نساء حتى متزوجات منهن، فأصرَّ أهله أن يزوجوه من فتاة ليس لها مغامرات، ربما لم يجدوا غيري، أعرف أن لعمتي دورٌ بالأمر... فوجئ الجميع حين وافقتُ بلا تردد،

لن أجد أحسن منه كما قالت لي، ولأضمن من يصرف على دراستي دون أن أشعر بإحراج... تمنيتُ أن نبقى مخطوبين بعض الوقت للتعرف عليه أكثر. كنت بشوق ليكون هو الصديق الذي تمنيتُ، كنتُ بشوق لمن أسير معه يدًّا بيد، لمن أهمس له ويهمس لي بأمور خاصة... لكنه أصر أن يتم كل شيء خلال تلك العطلة... اكتشفت سبب تسرعه فيما بعد أنه كان مترددًا وقد يغيِّر رأيه بأي لحظة!... كنتُ بالنسبة له أمرًا واقعًا، أو ورطة لابد منها، المهم أن يُرضي أهله لعلهم يتركونه بعدها يفعل ما يشاء بلا حساب.

- ماذا تعنين؟ هل واصل علاقاته السابقة؟ يعني كان يخونك!

- إنها حريته، كما قال، ولا يمكن أن أحرمه منها... مرَّتْ السنة الأولى بسلام، لكني أقسمتُ أن لا يكون لنا طفل حتى أتأكد من إخلاصه لي، بالرغم من إلحاح أهله وأهلي: «لا يربطه غير الطفل»، لكني رفضت، وإن كنتُ أقول لهم: «إن شاء الله، الأمر ليس بيدي»... كنتُ في تلك الفترة بدأتُ أشعر بشيء من الحب إزاءه، حاولتُ أن أُرضيه، أن أكسبه، أتحايل عليه لنخرج يومًا للسينما أو لأي مكان، لكنه يرفض بإصرار، ويسخر من بعض اقتراحاتي لأعرف بعدها أنه كان يذهب لتلك الأماكن ولكن مع إحدى صاحباته أو عشيقاته... لم أقدر على تجاهل الأمر أو أواصل السخرية منه، فعاتبتُه مرة... ابتسم بسخرية ولم يقل شيئًا كما لو أنه يقول: «وهل صدَّقتِ أن أكون لكِ وحدك؟!»... لو اكتفى بذلك لربما كنتُ معه الآن، لكنه صار يتعمد الإساءة لي، يسخر مني أمام أهله أو أصدقائه، وحتى أمام أهلي، يسمعني كلامًا جارحًا بلا سبب، يسخر من دراستي ومن إصراري

على النجاح.

صمتتْ وقد تغيَّر صوتها مختنقًا ببكاء مكتوم، ثم طلبتْ مني سيجارة، فرحتُ أبحث في زوايا بيت جبار حتى وجدت علبة، أشعلتُ واحدة لكل منا. كانت تمسح دموعها حين قدَّمتها لها. ارتاحتْ قليلاً وصرتُ أستحثّها بنظراتي لتتابع.

- لا أذكر متى صِرتُ أكرهه، لا أطيق وجوده، بل أتمنى أن يذهب لأي من عشيقاته ولا يعود... حين أسمع صوته أشعر بقرف ممزوج بألم وخيبة، ثم صرت أكرهني، كيف أقبل لنفسي هكذا إهانة؟ هل أنا جارية؟... شكوتُ لأهله وذكرتُ لهم أني لا أستطيع أن أواصل على هذه الحال فقالوا ببرود: «الموضوع يخصك، كوني ذكية واكسبيه» ولم يقولوا كيف... لمست من أخوتي عدم رضا من فكرة تركه، بل لمحتُ تذمر من عودتي لهم وتحملهم مصاريفي، إضافة إلى أن طلبي الطلاق سيحرمني من حقوقي... صممتُ على العمل في أي مكان لحين إكمال دراستي، فاشتغلت في مكتبة لبيع الكتب مساءً بعد وقت الكلية، تلك الفترة الوحيدة التي عرفتُ بها السعادة والرضا، لم يعترض ولم يهتم للأمر، صِرتُ بالنسبة له شيئًا زائدًا، لا يعنيه أخرج أو أبقى، أدرس أو لا... كأن لا وجود لي، ولكن لابد من أكون زوجة مطيعة لو رغب بممارسة الجنس معي...

توقفتْ عن الكلام، وبدا على وجهها شعور بالأسى، لابد أن ذكرى تلك الأيام. بالرغم من رغبتي بعدم سماع ذلك الموضوع، لكن فضولي لمعرفة ما حلَّ بذلك الزوج هي التي تحكمتْ بمزاجي.

- كنتُ أشعرُ بقرف مني في كل مرة بعد أن ينتهي، أنزوي بالمطبخ أبكي وأتساءل إلى متى؟ لابد من وضع حل أو نهاية، لن يساعدني أحد، فلأواجه الأمر وحدي، حتى عمتي كان موقفها سلبيًا، ربما بسبب مشاكلها... فطلبتُ منه الطلاق بعد تردد أيام وشهور لم أذق فيها طعم النوم ولا الراحة ولا حتى طعم الأكل، وخفت أن أفشل بدراستي فأكون خسرت كل شيء... كان فرِحًا أكثر مني، كما لو كان ينتظر طلبي بفارغ الصبر لكي لا يتعرض للانتقاد أو ليتجنب إيفاء ما عليه من مسؤوليات... فخرجتُ من البيت، أعطاني أبوه مبلغًا من المال، وأمه ودَّعتني بلومٍ وعتاب: «أنتِ غبية لا تعرفين مصلحتك». شكرتُها وخرجتُ، ثم استأجرتُ غرفة مع زميلة، بعد غضب أخوتي ورفضهم العودة للعيش معهم! فقررت أن لا أزورهم إلا بعد تخرجي. حلمت حينها أن أشتري بيتًا وآتي بأخي الصغير ليعيش معي، لكنهم انتقلوا للجنوب بسبب عمل أخي الأكبر، الذي تزوج ولم يدعني إلى حفل عُرسه! عرفت أنهم لا يريدون صلتي بهم، فلم أتصل بهم من يومها... عشتُ شهورًا أتساءل، أي قسوة هذه التي تدعهم ينسونني هكذا، حاولتُ مراتٍ أن أبادر أنا، أتصل بهم، أسافر لهم، ثم أتراجع وأنا أتساءل ماذا لو كانوا لئامًا ورفضوا استقبالي، حينها أكون خسرتهم نهائيًا وخسرت كرامتي... وبقيت بانتظار مبادرة منهم أو من أخي الأصغر الذي كان أقربهم لي، لكني عرفت أنه سافر للخارج ولم يسمعوا منه هم أيضًا.

- ماذا عن عمتك؟

- بقيتُ على صلة بسيطة معها، حتى توفيتْ بعد إصابتها بمرض

خطير عطَّل قلبها، فرحلتْ بشكل سريع... تأملتُ أن أجد أخوتي وأمهم أثناء العزاء، لكنهم كانوا قد عادوا لبيتهم بنفس الليلة، فكنتُ غريبة عن الكل، يتطلعون لي خفية، ويواصلون أحاديثهم، كما لو كنت ارتكبتُ جُرمًا!

غطَّتْ وجهها بكفيها وبكت...

- هل تعتقد أن تلك الأمور هي التي دفعتني لقتل منصور، لأنه لم يكن مثلهم، الوحيد الذي كان يسمعني... أم لأعطيهم سببًا واقعيًا، لأرتكب جُرمًا حقيقيا؟

احتضنتُها:

- لا تقولي ذلك، لم يكن لهم علاقة بما حصل، ما فعله منصور ومن مثله لا يُغتفر، لو كنا على صلة به مثلك وعرفنا ما فعله، ربما عملنا نفس الشي، أنتِ شجاعة.

أردتُ أن أغيِّر الموضوع فاقترحتُ عليها:

- ما رأيكِ أن نستقبل الفجر من على السطح، منذ زمن لم أصعد للسطح، وتستعيدين أيام زمان.

كانت مرهقة ولم تجب، لكنها بعد قليل مشت أمامي باتجاه السلم. تبعتُها بكأسين من العصير مضاف له قليل من شراب نسوي، كما قال جبار، دون علمها. أردتها ان تشعر ببعض من الهدوء والاسترخاء. هناك كان الجو جميلاً ببرودة خفيفة... أصوات الإطلاقات والمدافع بعيدة نوعًا ما وتضاءلت النجوم مع جحافل الضياء المتسارعة. كانت تنظر للسماء

بدهشة:

- أشكرك على هذا الاقتراح، إنها أخر مرة أرى بها سطحًا أو ربما السماء أيضًا.

أخذتْ الكأس وشربته مرة واحدة، فترنحتْ قليلاً ثم نظرتْ متسائلة:

- ما الذي حصل؟ أشعر بدوار... أي نوع من العصير هذا؟

أخذتُها من يدها لنجلس وقد افترشنا حصيرًا كان مركونًا على الجدار فرشناه على الأرض التي علاها الغبار ليشكِّل طبقة متساوية بعد مرور شهور لم يحظى بمن ينظفه. سور السطح كان عاليًا بعض الشيء لكن اتساعه منحه فضاءً رحبًا على عكس سطوحنا التي صارت أشبه بزنازين ضيقة ولكن بلا سقوف. جدرانها تنث حرارة لا تنفع معها المراوح ولا هواء الليل الذي كان ينعشنا. في زمن كانت تلك الأسوار واطئة وبعضها مزخرف بصخور مخرمة تسمح بمرور الهواء. ثم ضاقت تلك الأسطح بعد تقسيم البيوت وتعالت جدرانها وصارت عبارة عن كتل كونكريت لا لون ولا زخرفة فيها.

• • • •

تأملتُ السماء ثم تطلعتُ لها، كانت سعيدة أو هذا ما تمنيته، بعد المرور بقارب الذكريات المؤلمة تلك والحافلة بالمفاجآت. وقد نسي كلانا كم هو طويل كان يومنا، وكم سنة من القلق مرَّت خلاله!. لم أتوقع أن أتذكر أبيات شعر من قصيدة قرأتُها يومًا من ديوان لـ»هاشم شفيق»، بل صِرتُ أردِّد أبياتها وكأنها تحكي عن لحظتنا تلك!

(على السطح كنتُ،

أغسلُ وجهي بضياء النجوم

وأحلمُ بالآتي)

استلقتْ على الحصير، تمددتْ على ظهرها وتوسدتْ ذراعها وهي تتطلع للسماء، لابد أنها مرهقة أو أثَّر بها مفعول الشراب وقد منحها شيئًا من الدفء والاسترخاء، مع أني لم أضع سوى القليل في كعب الكأس، ليمنحها شيئًا من الراحة بعد رحلة الذكريات في قارب الانفعال ذلك، بقيتُ أتأملها وأحلم...

(كنتُ أحلمُ

بالليل يأتي...

وهي نائمة في

فراش المساء،

بهبات المراعي)

كنتُ أتأملها كما لو أنها امرأة أخرى، امرأة أعرفها منذ الطفولة، امرأة

رأيتُ بها كل النساء اللاتي اشتهيتُ يومًا أو اللاتي أحببتُ. عاودني شوقي لها، تلك الأحاسيس التي انتابتني من قبل، ذلك الشوق للاعتراف بحبها الذي تملكني بعد العثور عليها سالمة هذا الصباح.

(أبقيتُ

نافذتي

مشرعة على الرغبة

وبابي مواربًا

على الطفولة،

تركتُ الطائر

يرفرف)

بأجنحته يبعث نسائم الصباح تداعب شعرها، الذي سيعود منكوشًا بعد يوم أو اثنين. تطلعتْ مبتسمة ومحرجة بنفس الوقت:

- جميلٌ شِعرك هذا... لم تقل إنك شاعر أيضًا.

همستُ بصوت مرتبك:

- لا أكتب الشعر، ولا أحفظه، المفاجأة أني تذكرتُ تلك القصيدة التي قرأتُها منذ زمن.

كانت عيناها تناديني، أو هكذا أوحتْ لي نفسي وصدَّقتها، وقد صِرتُ لهيبًا وهي مزنة المطر، أمامي تنتظرني كانتظاري لها... حاولتُ جاهدًا أن أبتعد عنها، أن أشيح بوجهي بعيدًا، أن أصرخ بها لتبتعد عني، لتنزل الآن!

مثقلاً كان رأسي، استعصى علي وبقيت عيناي تتأمل جسدها النحيل وبريق عينيها الذي ربما كان دموعًا.

وجدتُ نفسي أتمدد بجانبها وأرفع رأسها قليلاً لكي أجعله يتوسد ذراعي بدلاً من يدها التي لابد أنها تعبت الآن. تطلعت لي بتردد، ولكن بلا خوف كانت مطمئنة تمامًا لي، ربما كانت ترى فيّ كل الرجال الذين حلمتْ بهم يومًا، الذين تمنتْهم يومًا...

- أنت أول إنسان أشعر بارتياح للحديث له... لم يدعني أحدٌ يومًا لرحلة سير قرب النهر، كم حلمت بها قبلاً.

شعرتُ بجسدها يتشنج وهي لا تدري هل تنهض هاربة أم تستسلم لتلك اللحظة التي حلمتْ بها وانتظرتها كثيرًا. ذلك الجسد الفتي يشكو التصحر قبل الأوان. مررتُ يدي لتزرع بعض بذور العشق على خصرها، ثم زحفت وكأنها تعاندني وتسخر من ترددي.

لقد منحتك ماضيها وحاضرها بل ومستقبلها أيضًا... منحتك كل العمر، فهل تستكثر عليك جسدها المتعطش أكثر منك؟

حطَّتْ يدي على صدرها فتكوَّر تحت يدي مثل عصفور بلَّله الندى، فرفرت عصافير رغبتي وهي تنطلق حُرة. قرَّبتُ شفاهي منها وقبَّلتُها. ترددتْ في البداية، ثم راحت تروي ظمأً قديمًا كاد يجفِّف كل غُصن بها... عانقتُها، صِرنا جسدًا واحدًا... همستْ بصوت عامر بالحياء مفعم بالشوق بالحب:

- ما الذي تفعله... ماذا تريد مني؟

- هل تقبلين بي زوجًا لكِ؟

... همستُ وشفاهي تحطُّ على شفتيها.

ضحكتْ وبادلتني القُبلة وصارت تغني: «أنا لك على طول». كانت أول مرة أسمع ضحكتها، سحرتني تلك النغمة في صوتها ومنحتني دفئًا ألقيته إزارًا على جسدها المرتعش في ذلك الفجر. فضحكتُ بكل خلية في جسدي وأنا أرتوي منها...

تصاعدت أنفاسنا ومعها أرواحنا التي صارت مثل فراشات حلَّقت للأعالي حتى ذابت أجنحتها لتصبح فراشة واحدة لتحط على شفاهنا. ضممتُها بذراعي بقوة واستسلمنا للنوم.

كنتُ أنا وإياها نركض على جرف النهر عاريين، لم نعبأ بالبرد ولا بالعيون التي تترصدنا، وصوت جبار يأتي من بعيد صارمًا قاسيًا محذرًا، فخفتُ أن يعاقبني، ثم رأيتُ منصور يتبعه ولكنه كان صورة مقطوعة من جريدة يحمل مسدسًا بيده.

نهضتُ مذعورًا... تطلعت حولي، ضياء الشمس ساطع، الحمد لله لم يكن هناك من يتطلع لنا من الجيران. التفتُ لها، رأيتها تغطُّ بنوم عميق، انحنيتُ عليها أقبِّلها، ثم أسرعتُ على صوت جبار الذي صار واضحًا الآن:

- أين أنتم؟ هيا لنفطر، ما الذي تفعلانه بأعلى؟

قبَّلتها مرة أخرى وأنا أهمس بأذنها:

- أنا نازل، اتبعيني بعد لحظات.

فتحت عيونها برعب:

- ماذا، هل سنذهب الآن؟

ضحكتُ وأنا أشير لها أن تهدأ ولا تخاف. تراجعتُ قليلاً وأنا أنظر لقميصها مفتوح الأزرار، تذكرتُ فجرنا الذي مرَّتْ عليه ساعات، أسرعتْ هي تلملم أطرافه بيدها وقد أحمر وجهها.

وجدت جبار قد أحضر الإفطار بأصناف عديدة، ويتصفح جريدة قديمة:

- كم الساعة الآن؟

سألتُه مرتبكًا، فوجئت بأنها كانت الثانية عشرة ظهرًا.

- لقد تعبتْ بالأمس، ولم أشأ أن أقمع رغبتها بالحديث، ثم واصلنا حوارنا على السطح.

قلتُ وأنا أحاول أن لا تلتقي نظراتنا... لماذا خفت من اكتشاف مغامرتنا؟

- هل نمتما بالأعلى؟

لم أنظر له لأعرف ما عناه بذلك السؤال.

- هي نامت بالأعلى، وأنا نمتُ بإحدى الغرف.

... قلتُ متمتمًا، وكأني تلميذ فاشل خائف من عدم التحضير للامتحان... لا أريد أن أوضح له أكثر خوف اكتشاف كذبتي.

نزلت هي محرجة واتجهت مباشرةً للحمام قبل أن تصبِّح علينا.

لم ينتظر جبار، بل باشر يأكل، كان قد شرب الشاي من قبل، وشاركتُه، فقد كنتُ جائعًا جدا، ولكن أكلت بتأني حتى تأتي.

- أبلغتُ المركز عما حصل بالأمس، وقلتُ لهم عن الشرطي وشكوكك فيه. كذلك قلتُ لهم إنك أخذتها بعيدًا عن المدينة لتضمن حمايتها، وستأتي بها غدًا أو بعد غد، حين تتأكد من ضمان وصولها سالمة.

... قال بهدوء، ثم تابع وهو ينظر لي بابتسامة ذات مغزى:

- يعني بإمكانكم البقاء هنا بضعة أيام، أو يومًا آخر على الأقل... أنا سأخرج بعد قليل لإنجاز بعض الأشغال.

كدتُ أقبِّله على هذه البادرة، لقد تمنيتُها، ولكني أبعدتُها عن بالي وقد اعتقدتُ استحالتها، كنتُ بحاجة لأبقى معها هنا، لأتأكد من تلك المشاعر التي عشتُها، فقد مرَّ بخاطري أنها أحاسيس سببها الخوف من فقدانها أو قلق من أني لن أراها، لو لم أنجح بالحصول لها على حكم مخفف.

- أشكرك حقًا، لكني فكرتُ أن أذهب بها لأمي في بيت عباس.

- لا داعي للذهاب لأي مكان والطرق غير آمنة، ولا تدري ما الذي سيحصل... هاتف أمك لتطمئن عليها».

ثم تابع وهو ينظر بعيني:

- هل تحبها؟

فاجأني سؤاله، ترددتُ بماذا أجيب، نظرتُ لكأس الشاي وتمتمت:

- ربما...

استصغرتُ نفسي وأنا أتردد، وكأني خائف من تلك المشاعر وما يتبعها من مسؤولية...

- أعتقد ذلك، ربما لحجم الثقة التي منحتْني إياها.

- لقد استمعت لبعض ما سجلتَه، والملاحظات التي ذكرتَها عنها وسبب تفكيرها بقتله، سأشتغل على الموضوع الليلة، ونبعثه لإحدى الصحف، أنا واثق من أن ردة فعل الرأي العام ستكون لصالحنا، أي لصالحها، أقصد القضية.

شجَّعني كلامه، فأخرجت المسجل الذي استلفته ليسمع ما سجلتُه لها من قبل.

شعرت بقلق من تأخرها، انتابتني هواجس واحتمالات غريبة، ما حكايتها! لقد جعتُ. وأسرعت إلى الحمام قبل أن أسمع أي تعليق له.

- هدى... هل أنتِ بخير؟

أوشكتُ أن أقول لها لقد تأخرنا، لكني ترددت، تأخرتم على ماذا؟ أنت السبب، من حقها الآن أن تهرب، أن تفعل أي شيء لتبتعد عن ذلك المكان، لقد قصدتْه بدافع اليأس أو هروبا من حياة لم تعرف بها غير الإحباط والخيبة.

- هل تسمحين لي بالدخول؟

... سألتها ضاحكًا.

فهمستْ بعصبية:

- أرجوك اتركني الآن، سأخرج حالاً... أنا آسفة.

كان صوتها حاسمًا، غاضبًا، وباكيًا. خمنتُ أن بكاءها بسبب خوفها من العودة للمعتقل الآن، فقلتُ لأطمئنها:

- سنبقى اليوم هنا، وربما غدًا أيضًا... اتصل بهم جبار، ووافقوا.

عدتُ إلى مكاني بعد أن يأستُ من جواب منها أو تعليق.

نهض جبار متهيئ للذهاب، حينها أقبلت بثوبها الذي جاءت به بالأمس، وجهها أحمر وعيناها متورمتان بكاءً...

- أنا آسفة لتأخري.

- نعيمًا.

... بادرها مبتسمًا ينظر لها بإعجاب:

- اسمعي أرجوكِ لا تترددي من اختيار ما يناسبك من خزانة زوجتي.

فاقتربتْ منه تصافحه شاكرة، لكنه عانقها، فبكتْ على صدره، تمتم وهو يمسح على رأسها:

- اعتبريني أخاكِ... سنعمل ما بوسعنا لمساعدتك.

كان واضحًا تأثره عليها. ثم التفتَ لي:

- لا عليك... سأترككم الآن.

- هل تريدني أن أفرغ ما سجلناه على الورق؟

... سألتُه بحماس التلميذ الذي يسعى لرضا الأستاذ.

- فكرة جيدة... ولو أني أشك أنك ستجد الوقت لذلك.

... ضحك وهو ينظر لي ثم لوح بيديه مودعًا.

أومضت فكرة برأسي فلحقتُ به قبل أن يشغل سيارته.

- أريد منك خدمة كبيرة جدًا، لابد من إنجازها اليوم...

توقفتُ لأرى ردة فعله واستعداده، فصاح بي:

- قل... تكلم، ولا داعي للمقدمات، أنا مستعجل.

- هذه بعض الأسماء التي تخصها، ياريت عن طريق الزملاء في مكتبك يعرفون عنهم بعض المعلومات وكيفية الاتصال بهم...

ثم تابعتُ وأنا أتمسك بنافذة السيارة:

فكرتُ بموضوع آخر لا أدري مدى خطورته، هل يمكن أن تجلب معك أحد أصدقائك... و... وقاضي أو رجل دين يزوجنا أنا وهدى...

صار نبضي مثل طبول وأنا أحاول أن أرى ردة فعله، حيث ترك مقود السيارة ونزل منها.

- ماذا؟... متى فكرت بذلك؟ هذا تسرّع... إنه قرارك على كل حال، وأنا أحترمه... حبها ما شئت ولكن تتزوجها؟!... اصبر قليلاً، قد تكون أفكارك مضطربة ومتشابكة الآن.

- لقد طلبتُ يدها بالأمس... لم يبقَ لنا وقت، أريد أن أُسعدها ولو لبضعة شهور أو أيام... أرجوك.

هزَّ رأسه ضاحكًا:

- حسنًا... سأحاول، إن لم يكن اليوم، فربما غدًا صباحًا، فلا أعرف طبيعة وضعهم والتزاماتهم.

صافحتُه، ثم عانقتُه شاكرًا، وأسرعت لداخل البيت.

شعرتُ بارتياح وفرح لم أعرفه من قبل. كنتُ بشوق كبير لها كما لو أني فارقتها زمنًا. أخذتُها من يدها لتقف أمامي وعيناها تتساءلان. طوَّقتُها بذراعي لأضمّها إلى صدري، أنعشني عطر جسدها، فحملتُها بين يدي ومشيتُ غير مبالٍ باحتجاجِها صوب إحدى الغرف. ألقيتُها على السرير، لكنها نهضتْ مسرعة:

- ما الذي تفعله... أرجوك.

... قالت بصوتٍ باكٍ مشحون بالغضب.

فوجئتُ بغضبها:

- ماذا؟... مشتاق لك بشكل لا يمكنكِ تصوره... أنسيتِ أننا تزوجنا بالأمس؟... وكان القمر والنجوم شهود على ذلك.

اقتربتُ منها لأقبِّل شعرها، فابتعدتْ قليلاً:

- لا تخلط بين العطف والحُب... لا أعتقد أنكَ كنتَ تعني ما قلتَه.

- هل لديكِ شكٌ بمشاعري؟ معقول؟... ألم تلمسي ذلك، ألم تستنشقيه؟

ثم تابعتُ غاضبًا:

- أنا آسف.

وابتعدتُ عنها وجلستُ على المائدة، شربتُ من كأس الماء وأشحتُ بوجهي عنها.

- هل نسيتَ ما قلتَه لي قُرب النهر؟

... سألتْ بأسى وهي تقترب مني وقد عادت... احتضنتْ رأسي، فشعرتُ بدفء جسدها يهدِّئ وحش الغضب.

- أنا أحببتُكَ منذ اليوم الذي أتيتني بذلك الحساء المُر... وتأكدتُ من حبي لكَ يوم سِرنا قُرب النهر، لم أخف أو أتردد من أن أصرِّح لكَ بحُبي، ربما لأني راحلة ولم يبقَ لي شيء أخسره... تلك اللحظات هي كل عمري؛ ما مضى منه وما تبقى... لكني أقدر ترددك وأحترم صدقك، لا أريد أن تصدِّق كذبتك، ولا أريدك أن تتعلق بي وأسبِّب لك عذابًا أنت في غنى عنه.

سحبتُها وأجلستُها على حِجري وقبَّلتُها من شفتيها التين بللتهما الدموع، خِفتُ أن تكون رغبتي بها هي اشتهاء أكثر منها حُب... لكن كيف أفرِّق بين الاثنين؟!

نهضتْ وجلست قبالتي، فأخذتُ كفها بين يدي...

- أنا بصراحة، أول ما عرفت قضيتك، وضعتُ سيناريو للسبب، علاقة عاطفية، وعود كاذبة، وعوَّلتُ أن أكسبها من خلال فضح ذلك السياسي الدعي... لكن بعد نطقك وشرحك للأسباب التي رأيتُها أكثر سموًا، بل فيها تضحية وتعالي على كل الأسباب الأخرى، أُعجبتُ بكِ جدًا، حين قلتُ ما قلتُه وفسّرتِه أنتِ بالشكل الذي ارتأيتهِ، كنتُ وقتها خائفًا من مشاعري

أنا، خِفتُ أن لا تكون حقيقية فيكون لك تصور أني أكذب عليكِ وأسبِّب لكِ إحباطًا وخيبة أخرى... الآن أنا أحبكِ حقًا، أشعر أني لا أستطيع أن أستغنى عنكِ... بل أخطِّط لنهرب معًا، نستغل هذه الفوضى على الأقل، لا أعتقد أن الأمر صعب.

سحبتْ يدها بهدوء وشربتْ بعض الماء، كان على وجهها حيرة وقلق أكثر منه فرح باعترافي.

- من حقك أن تهرب من هذا الجحيم، أنت إنسان غير مثقل بحِمل كبير، أما أنا فكيف لي الهرب؟ قد أهرب من الحُكم، من السجن، لكن كيف أهرب من ثقل الجريمة... شيئان لا يمكن الهرب منهما: الموت، والشعور بالذنب أو عذاب الضمير.

أخذتها من يدها لنقفُ قرب النافذة:

- والحب؟ هل تقدرين على الهروب منه؟

نظرتْ لي وفي عينيها فرح لم تقدر أن تخفيه.

- اتفقنا أن أسبابك كانت أرقى من حياته، بل أنتِ بما تسمينه جريمة كنتِ تحاولين إنقاذ العشرات من الأبرياء، فلمَ عذاب الضمير؟... بالعكس، المفروض بنا نحن أن نشعر بعذاب الضمير وكل الذين يتفرجون، إلا أنتِ... إلا... إلا إذا كان هناك سبب آخر أخفيتِه عني.

- لا طبعًا... أقسم لكَ أني كنتُ كتابًا مفتوحًا جعلتك تقرأ كل شيء، حتى خيباتي وفشلي... ولكن لا أريد أن تتورط مع مجنونة.

- أحب شيء لي هو جنونك... كفى... تعالي كلي قليلاً لنعمل الغداء نفاجأ به جبار.

عادت عصافير رغبتي بها مرغمة إلى أقفاصها، قبل أن تهرب ويصعب السيطرة عليها.

تركتُها في المطبخ:

- إذا احتجتِ شيئًا غير موجود؛ أخبريني لأشتريه لكِ.

رجعتُ للصالة أرتبها وأجمع الملابس والكتب المتناثرة هنا وهناك وأعيد كل شيء لمكانه، بحثتُ في خزانة الأولاد عن بعض الأشرطة الملونة والبالونات، فوجدتُ القليل منها، زينتُ بها الجدران. ثم ذهبتُ للحديقة، كانت مهملة منذ سفر زوجته، لم يكن لديه الوقت للتواجد في البيت. الماء مقطوع كالعادة فملأتَ إناء بلاستك من البرميل المملوء إحتياطا، رغم الغطاء كان سطح الماء مليئا بالغبار وبعض أوراق الأشجار. سقيتُ الشجيرات ونبتات الورد التي لم يبق منها سوى القليل، قطفتُها مع بعض أغصان الياس، ووضعتها في مزهرية ملأتُها بالماء.

دخلتُ الحمام لأغسل يدي، فوجئت بلحيتي صارت مثل ثيل الحديقة، وشعري منكوش. لم يكن هناك ماء ساخن، لكن ماء الأواني البلاستيكية التي ملأت احتياطًا لم تكن باردة تمامًا فاغتسلت وحلقت لحيتي، ثم غسلت قميصي، لعلي أجد ما يمكن أن ألبسه لدى جبار، كان أقصر مني وجسمه ممتلئ، مع ذلك وجدت قميصًا مناسبًا وإن كان قصيرًا بعض الشيء.

صِرتُ أشمُّ روائح الطبخ، ثم تناءت لسمعي موسيقى وأغنية لأم كلثوم، وجدتها هناك تقلب بعض الكاسيتات، أعادتها إلى مكانها حين رأتني:

- نعيمًا... هل تعجبك الأغنية؟ هذه ليلتي، ممكن تغيّرها.

- بالعكس، إنها أنسب أغنية.

... قلتُ وأنا أطوّق خصرها.

ابتعدتْ خجلاً، فيبدو أنها لا تجيد التدلل.

- لم أنتبه للكلمات من قبل، تكاد تكون أجمل أغانيها.

... قالت بصوت مفعم بالحب، ثم تابعتْ لتبعدني عنها:

- الأكل جاهز إذا كنت جائعًا.

- لننتظر جبار، أرجو أن لا يتأخر... ثم أنا جائع لكِ، ظمآن لقُربك، تعالي بجانبي نتساقى من خاطر الأحلام، لنحب ونسكر الأيام... ما بالك تهربين مني؟

كانت تجلس بعيدًا، بريق الفرح يضيء عينيها، بدت أكثر جمالاً، ربما هو الفرح يضفي غلالة من الجمال عليها، أو هو حبي لها في تلك اللحظات. ولكن القلق ما زال يخيم عليها.

أخذتْ تتمايل مع اللحن، فأخذتُها من يدها لنرقص معًا متعانقين، أين كان يختفي ذلك الحب والشوق؟!

- ألم تقترح على جبار أن تنقل بعض ما بالمسجل؟

... همستْ تتساءل وأنا أطوِّقها برغبة محمومة لم أسيطر عليها. كنتُ

أشعر بارتعاشة جسدها، أعرف أنها أكثر رغبة مني، ولكن من أين لها هذه القوة لقمعها. لم أشأ أن أفرض عليها رغبتي، فنهضتُ متباطئًا مثقلاً بالإحباط. أخذتُ بعض الأوراق وقلمًا وشغلت المسجل، سمعتُه مراتٍ ولم أقدر أن أكتب كلمة واحدة، شيء ما يثقل يدي ويسحبها.

منعتُ نفسي من النظر لها، وقمتُ أبحث عن أغنية أخرى تصبِّر شوقي لا أن تؤججه، ماذا دهاك؟ نسيت القضية التي لابد أن تهيئ نفسك لها. خاطبتُ نفسي دون جدوى، فلم أتمكن من إقناعها أن تلك الإنسانة التي أحترق حُبًّا وشوقًا لها، قد لا أقدر أن ألمس يدها أو أقبِّلها بعد أيام، ألا تشعر هي بذلك أيضًا؟

وجدتُ يدي تسحبها لننقاد معًا لسرير غرفة الضيوف... لم ترفض أو تنسحب، كانت هي أيضًا مثقلة بالشوق والتعب. ونمنا متعانقين، رأسها على صدري تصغي لنبضي ونامت، لم أوقظها، حتى سمعتُ الباب يُفتح. أسرعتْ هي تعدِّل ثوبها... تركتُها وخرجتُ مسرعًا.

كان جبار مع زميلين، طِرتُ فرِحًا حين عرفتُ أن أحدهما قاضي، صديق قديم لجبار. الآخر أحد الشباب العاملين معه في المكتب... سلَّمتُ عليهما بحرارة بعد أن عرَّفني بهما، ثم همس وهو يأخذني للمطبخ:

- كنتُ أعرف أنك مصرٌّ ولن تصبر ليوم غد.

ثم فوجئ بوضع المطبخ وترتيبه:

- وطبختُم أيضًا؟... إنها شاطرة حقًا... المهم أنا أحضرتُ بعض المشاوي،

في السيارة الآن، تعال ساعدني.

من بين الأكياس أعطاني كيسًا ملونًا كبيرًا:

- خذ هذا فستان لهدى، لابد أن تلبس فستانًا جديدًا للمناسبة.

ارتبكتُ، إنه ينتبه لكل شيء.

- لا أدري كيف أشكرك، ولكن فكرتُ أن أخرج معها لتشتري ما تريد.

- لا وقت لديك لذلك، ثم كيف تخرج معها وسط البلاوي التي تترصدنا؟

كانت تجلس على حافة السرير محرجة وأنا أقدِّم لها الأكياس...

- ما الذي سيقوله جبار عني؟

- خذي البسي هذا الفستان، جلبه الآن لكِ.

سلَّمتُها الكيس وأنا أضحك بانفعال.

- هذا فستان حفلات؟

... قالت متسائلة.

- بلى، سنقيم حفلة الآن، البسيه، هناك ضيوف ينتظرون... هيا بسرعة.

وتركتُها لأعود للضيوف، كان جبار قد أحضر بعض الشراب لهم.

- المعلومات التي طلبتها، ستكون جاهزة خلال أيام بإذن الله.

... قال مساعد جبار.

شكرتُه واعتذرت عن إشغالهم بهذه الأمور التي المفروض أن أنجزها بنفسي.

- اتصلتُ بعباس ليأتِ الآن مع والدتك، كانت قلقة جدًا، لكني أكدتُ لها أن كل شيء على ما يرام.

... فاجأني جبار بهذه البادرة.

- متى اتصلتَ بهم؟

- من المكتب... اسمع، بعد أيام سأبعث لمن يأتيك بأغراضك من بيتكم، ستقيمون هنا حتى عودتنا من الخارج، على الأقل توفِّر مبلغ الايجار... لقد قررتُ أن التحق بالأولاد، حصلتُ على عقد عمل هناك... آسف لم أقل ذلك من قبل لقد انشغلنا بأمورٍ أهم.

- ما هذه المفاجآت؟

- ليست مثل مفاجأتك على كل حال، مع ذلك لقد لمَّحتُ لك بالاحتمال يوم سفر زوجتي... المهم المكان هنا يناسبك، وسأكون مطمئن على البيت.

- كنت أفكِّر أن... أن تأخذ أنت قضية هدى، لا عليك المهم أن تكون مع عائلتك.

لم يعلِّق، لابد أنه محرج بالوقت بالتفكير بعائلته، بحرصه على مساعدتنا. ثم نهض بشيء من الانفعال:

- أين هدى؟... تأخرتْ... أين أنتِ ياعروسة؟

تبعتُه، مستأذنا من الضيوف، فأنا لم أقل لها شيئًا بعد.

لم أسمع سؤالها وأنا أراها بفستان بلون الحليب تطرزه ورود من لآلئ بنفس اللون، سرَّحت شعرها تركته ينسدل على كتفها، كانت جميلة بالرغم

أنها لم تضع أيًّا من المساحيق.

- ما الذي تقوله؟... أستاذ جبار، أشكرك على الفستان، ما مناسبة الحفلة؟

حين أخبرها جلستْ على حافة السرير مذهولة...

- ما الذي تقوله؟... أنا... كيف؟

- سيشرح لكِ فيما بعد بمعرفته، كان قراره، والذي أعرفه أنكِ وافقتِ، لن يرغمكِ أحد على شيء، قولي الآن إذا كنتِ ترفضينه.

شعرتُ بإحراج وحيرة، لا اعتقد أن في نيتها الرفض، فقلتُ لها ضاحكًا:

- أنا لك على طول، خليك ليا... هل نسيتِ؟

- كنا نحكي عن الحب، لا عن الزواج، تتزوج امرأة محكومة بالإعدام؟! وأمك ألم تفكر بها؟ لابد أنها لن توافق، وتزعل منك.

كانت تحكي بعصبية، لكن عيناها لا تعرفان الكذب، كانتا مضيئتين ببريق الفرح والدهشة.

- بشير، اتركنا الآن، لابد أن أمك وصلتْ الآن، أسمع صوت سيارة تقف قُرب الباب.

... أمرني جبار.

نظرتُ لها متوسلاً أن لا تحرجني.

كانت أمي حقًا ومعها عباس وزوجته، هلَّل عباس ضاحكًا:

- معقول يا رجل مفاجأتك.

عانقني وهو يغمز بعينيه وهمس:

- كان هذا هو السبب الذي جعلك تُبعد الحاجة.

- يا لئيم أنسيتَ الأخبار، نسيتَ حين قلتُ لك أن لا تخبر أمي... المهم سأشرح لك فيما بعد.

قلتُ وأنا أفسح المجال لزوجته التي زغردت وهي تضحك وتبارك لي.

أمي كانت غاضبة حقًا، مع أنها كانت تلحُّ على موضوع زواجي، هدى معها حق «تتزوج مجنونة، وقاتلة؟» هذا ما قرأتُه في عينيها. عانقتُها وقبَّلتُها من جبينها ورأسها:

- آسف يا أمي، صار الأمر على عجلة، تعرفين ماعندي وقت، ورانا محكمة وربما إعدام... لا سمح الله.

... ضحكت مازحًا، وتابعتُ:

- سأشرح لكِ كل شيء فيما بعد، المهم أن تقنعيها، فهي رافضة لأنها تعتقد أنكِ غير راضية عني. أنا أعرف حبك لي، ورضاك هو سعادتي، فلا تحرميني من تلك السعادة.

قلتُ لها ذلك لأقطع عليها فكرة أن هدى قد تكون خدعتني أو سحرتْ لي!

- هل أقدر أنا المسكينة على لسانك؟ لسان محامي... طبعًا يهمني سعادتك، ولكن أي سعادة ترجوها من زواجٍ كهذا؟

... علَّقتْ ساخرة.

- المهم يا خالة أنه سعيدٌ الآن، فالغد غير مضمون في أيامنا هذه... يا الله افرحي له، لقد شرح لك جبار كل الظروف.

كانت زوجة عباس تحاول إقناعها.

حين دخلنا لم تكن هناك، ما زالت غير موجودة وجبار لابد أنه مازال معها، معقول أن تكون عنيدة لهذا الحد؟!

طلبتُ من أمي وزوجة عباس الذهاب لها لإقناعها. راودني قلقٌ أن تكون حقًا رافضة لي لأسباب أخرى، لكن ليلة الأمس أو فجر اليوم أبعدا أي شك في حبها لي ورغبتها بي. ربما خوفها من الغد ذاك هو الذي جعلها عنيدة، تظن أن رفضها هو تأكيد على حبها وتضحيتها... إنها مخطئة، لابد أن أقنعها بأنها على خطأ.

لم أصغ للنقاش الذي دار بين القاضي ومساعد جبار وعباس حول الأوضاع، إنه ذات الجدل البيزنطي، والذي عرفت أنه الجدل الذي يدور حول نفسه بلا نتيجة، كلهم متفقون على السبب ومن وراءه، لكن كل منهم يعتقد أنه الصح والآخرون لم يفهموا الوضع كفهمه له.

صرتُ أبحث عن كاسيت لأغنية ما صرت أدندن «عرفتُ الهوى، مذ عرفت هواك» أغنيها بصوت عالٍ، أودعتها كل مشاعري، لعلها تسمعني.

صِحتُ بصوتٍ عالٍ كصيحة أرخميدس: «وجدتُها» حين وجدت كاسيت تلك الأغنية «كم أنت رائع أيها الجبار». وضعتُ الأغنية لكنهم اعترضوا:

- هل تأثرتَ بأعراس {المتأسلمين} اليوم؟

- ياريت يغنون مثل هذه، بل حتى هذه حرام في عُرفهم.

... علَّق عباس.

لم أسمع لهم، رفعتُ الصوت قليلاً:

- أشعر كأنها لي في هذه اللحظة.

ضحكوا جميعًا ورضخوا للأمر.

عزمتُ أن استطلع الأمر، فقد نفذ صبري، لكن جبار أمسك بيدي لأصبر قليلاً.

جلستُ حين لمحت أمي وزوجة عباس تحيطان بها، مع هلاهل تطلقها زوجة عباس بصوتها الجميل البلوري. وقفتُ استقبلها... كان وجهها أكثر إشراقًا وقد أخفت احمرار عينيها بالكحل، لابد أن زوجة عباس فرضت عليها: «كيف العروس تظهر بلا مكياج!». كانت جميلة وجذابة، شعرتُ بها مشرقة بثوبها، بشعرها الذي زيَّنته ببضع زهور صغيرة، لم تكن تعرف أين تجلس، فنادى عليها القاضي أن تجلس بجانبه.

- مَنْ هو وكيل العروس؟

نهض جبار ليجلس بجانبها:

- أنا وكيل هدى.

أمسكتْ بيده، وقد امتلأت عيناها بالدموع.

فقدَّمتُ أمي:

- أمي وكيلة عني.

فرحتْ أمي بذلك واستنكرتْه بنفس الوقت، لكني صمَّمتْ على ذلك.

تمَّتْ المراسيم بسرعة، وقد توقعتُ أن تطول أكثر، كانت تختلف عما نشاهده بالأفلام، اكتفى بسؤالها أن تقبل بي زوجًا، كرَّر السؤال بشكل روتيني، فأجابت بنعم، وسألني عن الصداق أو المهر، ضحكتُ، فلم أفكِّر بذلك، أخذ جبار المبادرة مرةً أخرى:

- ألف حاضر، وألفان غايب؛ أي المؤخر.

لم يناقشوا ألف ماذا، دينار أو درهم، أو ألف دولار؟ ما كان يهمنا ذلك.

جاء عباس بالشربت ووزَّعه علينا، بينما زوجته واصلت إطلاق زغاريدها. ثم نهض وأطفأ المسجل:

- سأغني لكم مخصوص بهذه المناسبة.

عانقني وهو يبارك لي، ثم صافح هدى مهنئًا. انتبهتُ إلى أني لم أعانقها ولم أقبِّلها بل حتى ما صافحتُها. فجلستُ بقُربها مهنئًا وقبَّلتها أمامهم بالرغم من اعتراضها.

غنَّى عباس بصوته الرخيم الدافئ الصافي، وصاحَ عاليًا بالابوذية التي ابتعد بها عن لوعة الهجران والغُربة والأحزان... بالرغم من ذلك أخذ الكل يبكي، يبكي ذكرياتٍ وفرحًا انتظروه طويلاً لكنه ينأى أميالاً، يواصلون الركض للحاق به... يبكي أيامًا كان يراها معتمة لكن عتمة اليوم جعلته يحنُّ إلى ضيائها.

في أوائل القرن الواحد والعشرين، لم يعد هناك من يجرؤ على القول: «أنا من القرن العشرين وفخورٌ بذلك» كما قالَها ناظم حكمت يومًا.

عانقتُه لا لأسكته، ولكن لأمنع صرخة كادت تحطم بقايا الأمل بداخلي. أنا بحاجة لسماعه لكن ليس الآن. فأشرت لجبار أن يبحث عن شيء يوحي بالفرح. فاختار «يا كلمة إنت شكبر حرفك» لسعدون جابر، مضى زمن لم أسمعه، بل لا أذكر متى تناءت رغبتي بالأغاني التي كنتُ لا أعرف العمل بدون أن أسمعها.

ثم غيَّرتُ الكاسيت لأم كلثوم «هل رأى الحب سكارى مثلنا» رقصنا أنا وهي، كان وجهها متألقًا بالفرح الذي أضاء نجومًا عديدة بعينيها، كانت تنظر لي بدهشة مَنْ لا يصدِّق ما حوله. انحنيتُ وقبَّلتُها من عينيها ثم من شفتيها التي كانتا منفرجتين كما لو أنهما تدعواني بإلحاحٍ وتوسل.

دعوناهم للرقص معنا، حتى أمي أجبرتُها أن تشاركني الرقص، لكنها اكتفتْ بالوقوف بجانبي تلوِّح بيدها ثم انسحبتْ للمطبخ...

- خلي أسوي عشاء للجماعة.

تبِعتُها وأنا أعرف أنها تريد أن تختلي بنفسها.

- لو لم تكن ابني وأعرفك، لقلتُ إنك فعلتَ ذلك من أجل فلوسها.

... همستْ معاتبة وهي تخرج بعض الصحون من الخزانة، وتبحث عن المعالق.

- فلوسها؟!... أنتِ تعرفين أنها مسكينة لا مال ولا حلال.

ضحكتُ من فكرتها، وعانقتُها، ثم حملتها وصرتُ أدور معها.

- كفى، لقد دُختُ... لا أعرف، سمعتُها تتفق على وكالة مع جبار.

- ألم تنتبهي أنه وكيلها بمراسيم الزواج، ربما هي طلبتْ منه ذلك أو على الأكثر هو الذي اقترح عليها... يا أمي لا تشغلي بالك، أريد أن أكون سعيدًا ولو لبضعة أيام.

... قلتُ معاتبًا أكثر منه توسلاً، ثم أخذتُ يدها وقبَّلتُها.

- أمنيتي أن أفرح بك في مثل هذا اليوم، انتظرتُ أن أعمل لك حفلة يرقص بها القاصي والداني.

... هزَّتْ يدها بخيبة.

- أنا آسف حقًا، لكن الوضع كما ترين، حتى الذين وضعهم طبيعي يحذرون من عمل حفلة كما في السابق، خوفًا من غربان الموت التي تترصد أفراحنا وأحبتنا... لكن أعدك أن نقيم عُرسًا كبيرًا حالما تنتهي القضية على خير، وبدل القاصي؛ سنجعل القاضي يرقص معنا.

ضحكتُ عاليًا مما تصورتُه نكتة مستوحاة من سرعة بديهتي... الحقيقة كان الفرح الذي لم أجرِّبه من قبل هو من فتح قريحتي.

لم تعلِّق على الأمر، خرجتْ بالصحون ووزَّعتها على المائدة، فهرع عباس وزوجته لمساعدتها.

كنتُ منفعلاً جدًا، أريد أن أرقص بعنف، أن أغنّي بصراخ، أن أعناقهم جميعًا، جبار، الذي جعل لكل لحظة من هذا اليوم عُمرًا كاملاً حافلاً بالحب

والأمل والفرح... انتبهتُ ليديّ ترتجفان، جلستُ بجانبه.

- لقد شغلتك اليوم... هل حقًا ستسافر؟...

لم أستطع أن أواصل الكلام، لقمع صرخة تسابقتْ مع الكلمات.

- أنت تعرف رأيي، كنتُ رافضًا لأي فكرة للرحيل أو حتى السفر لزمن قصير، لكن الأمور صارت كأنها كابوس ولابد من صفعة ما لإيقاظِنا. فوجدتُ أنه لا معنى لبقائي بعيدًا عن أولادي، لعلَّ في ذلك تكون صفعة اليقظة، قبل ان أُصفع بحزام ناسف أو صاروخ غبي، لأعيش الكابوس للأبد.

ثم وضع يده على كتفي مشجِّعًا:

- سأكون معك، سأترك لك تلفوني لأكلِّمك كل يوم، وعلى العموم لابد أن تلحق بي أنت فيما بعد... سنحكي في ذلك لاحقًا، اليوم فرحك فلا تضبب اللحظات بأي موضوع آخر.

لمحتُ قلقًا على وجهها وهي تحاور نجاح مساعد جبار، حين أخبرني عنه اعتقدتُ أنه فتاة، فكثيرٌ من الأسماء تناسب الرجال قواعديًا، مع ذلك صارت شائعة للفتيات. لابد أن الحوار يخص ما طلبتُه من معلومات، فأسرعتُ للجلوس قُربها وأحطتُ كتفها بذراعي:

- ممنوع الحديث خارج حدود الأغاني.

ضحك معتذرًا:

- كنتُ أسألها عن أغنيتها المفضلة.

ثم نهض ليجلس مع أمي يمازحها وهو يمتدح أكلها.

اقترحتُ عليها أن نذهب للحديقة.

- وهل نترك الضيوف؟... ماذا سيقولون عنا؟

سألتْ وقد احمر خداها، فهمستُ بأذنها ضاحكًا:

- إنهم ضيوف جبار، نحن ضيوفه أيضًا.

قاطعني صوت عباس وهو يحث الموجودين على الغناء، سألها:

- أي أغنية تودين سماعها، إنها ليلتك.

ضحكت زوجته:

- هذه ليلتي.

- إنها ليلتهما وليست ليلتك.

اقترب منها ضاحكًا:

- فعلاً إنها أنسب أغنية.

صار يغنيها بطريقته، مما أضاف لها عُمقًا وبُعدا صوفيًا. فقمتُ وأنا أسحبها من يدها لنرقص معًا:

- لا تفكري بهم، تخيلي أننا الآن وحدنا... صدقيني إنهم فرحين بنا ويفرحون أكثر حين يشاهدونا نحتفل.

قبَّلتُها من رقبتها، لم أستطع أن أصبر وقد سكرتُ وأنا أشمُّ عطرها، مالت برأسها جانبًا وهي تبتسم بخجل.

• • • •

أيقظني نور الصباح الذي ملأ الغرفة، تأملتُها، كانت تتكور مثل الطفل، قبَّلتها من شعرها ومن جبينها، فنهضتْ مفزوعة، ابتسمتُ:

- ما بكِ؟... صباح الخير.

قبَّلتني ثم تشبثت برقبتي وهي تتنفس بعمق.

- تمنيتُ أن لا أستيقظ أبدًا، كنتُ أريد أن أحتفظ بكل لحظة عشتها معك، لتبقى معي للأبد.

أجلستُها على حِجري:

- استيقظي لتريني معكِ على طول، وسنعيش ونعيد تلك اللحظات، لا تفكِّري بغير ذلك.

ركعتْ على الأرض وهي تتطلع لي وعيناها تتلألأ فيهما دموع مشرقة:

- لم أصدِّق حكاية قَدَر الحب، أو الحب قدرًا، حتى شعرتُ به معك، لم أقدر على كتمانه، بل أنا الآن أكاد أختنق به، لابد أن أقوله لك، لستُ خائفة من شيء، ولكن أخاف أن تفقدني وأسبِّب لك أذىً.

- لا تخافي ولا تفكري بأي شيء بغير اللحظة التي نعيشها.

... همستُ لها بإصرار وأنا أطوِّق خصرها.

قاطعني صوت أمي:

- خلو شوية للغد... لابد أنكم جعتُم الآن.

أُحرجتْ وهرعت لتغير ملابسها، وطلبتْ أن أتركها وأذهب لهم.

كنت أعرف أن ما أقوله ليس إلا كلام، فأنا نفسي أعيش خوفًا وقلقًا يكادا أن يكسرا أجنحة الفرح التي شعرت بها ترفعني عن الأرض وتطير بي...

هل حقًا أحببتُها؟ هل خوفي من فقدانها له علاقة بالحب، أم هي حالة عطف إزاءها فرضتها الظروف؟...

طردتُ تلك الأسئلة، أنا سعيدٌ بها الآن. وهذا إن كان يعني حُبًّا أو شيئًا يشبهه، لماذا أُربك تفكيري بتلك التساؤلات التي لن يجدي الجواب عليها غير المزيد من الحيرة.

كان الجميع هناك يجلسون لمائدة الطعام، اضطروا للمبيت، خوفًا من الشوارع ليلاً حيث تصير أوكارًا لغربان الموت.

زغردتْ زوجة عباس هلهولة قصيرة، وقام الكل معانقًا مهنئًا، لابد أنهم يجاملونني، عادتْ تلك الأفكار تضبِّب على يومي.

• • • •

في اليوم التالي جاء نجاح مساعد جبار وطلب أن يحدِّثني على انفراد...

- عرفتُ بعض المعلومات عن زوجها السابق، ولم أحصل على معلومات أكثر من التي تعرفها عن أخوتها... قبل طلاقهما كانت إحدى عشيقاته هي إحدى زميلاتها بالعمل، بعد الطلاق صارت شبه زوجة له، وكان يزورها بالمؤسسة، وأعتقد أنها كانت تعرف ذلك.

- هل عرفتَ من هي؟... ما اسمها؟

تطلع بالأوراق وقال:

- سعاد... ذهبتُ للمؤسسة وطلبتُ مقابلتها، سألتُها بعض الأسئلة الخاصة، عن علاقتها بهدى، بالقتيل؟، وعن رأي خطيبها بالموضوع؛ زوج هدى سابقًا؟ فوجئتْ بالسؤال والمعلومات، فقلتُ لها إننا نعرف كل شيء عن كل العاملين بالمؤسسة حتى خصوصياتهم.

فوجئتُ أنا بهذه المعلومة... هل كانت سعاد حاقدة عليها بسبب ذلك؟

ثم سألني نجاح:

- هل تعتقد أن هناك علاقة لهذا الأمر بموضوع هدى؟ أقصد سببًا ما ليدفعها للاضطراب ولتقم بالانتقام من الذي سمح لسعاد أن تشتغل معهم، بل وتسبِّب لها بعض الأذى... عرفتُ أنها كانت على علاقة سيئة جدًا بهدى وتتحين الفرص لتؤذيها وتتسبب بطردها من المؤسسة.

- ربما سعاد حقًا تحاول إبعادها عن المؤسسة، لا بسبب منافستها على الوظيفة كما قالت، وإنما وضح السبب الآن، لابد أنها تذكِّرها أن

خطيبها كان متزوجًا من هدى، وهدى طلبت منه الطلاق... ولكن لا أظن أن قتل منصور له علاقة بتصرف سعاد، السبب أبعد من ذلك... السؤال: لماذا لم تقل لي هي هذه المعلومة؟ حين تطرقتْ للحديث عن زوجها السابق أو عن سعاد؟

نهض نجاح مستأذنًا:

- يجب أن أذهب الآن... هذه بعض الصحف فيها إشارات عن القضية... وهذه رسالة من جبار، سيبيت الليلة في بيت أخته ليودعها على ما أظن... سأذهب الآن، إذا احتجتَ لأي شيء اتصل بي في أي وقت.

شكرتُه على كل شئ... وأنا أوصله للباب طلبت منه أن يبلِّغ جبار تحياتي.

بقيتُ شارد الذهن بموضوع سعاد، بالرغم من عدم أهميته... ولابد أن جبار قرر المبيت في بيت أخته ليمنحنا فرصة التصرف بحرية في بيته... أمي في المطبخ بعدما طلبتُ منها أن تبقى معنا، وقد رفضتُ اقتراح عباس أن يأخذها لبيتهم لحين ما تهدأ الأمور.

كانت تساعد أمي بغسل الصحون حين ناديتها بصوت فيه غضب لم أقدر على تفسيره، فجاءت مسرعة وشيء من الخوف لاح على ملامحها وهي تمسح يديها بأطراف قميصها.

أشعلتُ سيجارة:

- ما الحكاية؟... لماذا عدتَ للتدخين؟ هل رفضوا بقائي ليوم آخر؟.

... سألتْ بصوتٍ مرتبك.

- لماذا لم تذكري لي أن زوجك السابق كان على علاقة بسعاد؟

... سألتُها معاتبًا ولم أحفل بأسئلتها التي كانت أهم من سؤالي.

- ما الذي تقوله؟... أي سعاد؟... ما الذي ذكَّرك بها؟

... تساءلت بشيء من الارتياح أن موضوع بقائها لم يعترضوا عليه.

ألححتُ عليها:

- لم تجيبي على سؤالي.

- ما الذي تقوله؟ هل التقيتَ بماهر؟ لا أعتقد ان له صلة بسعاد على الإطلاق، ربما هي تشيع ذلك اعتقادًا منها أنها ستثير غيرتي أو حسدي لها... صدقني حتى لو هناك علاقة بينهما فأنا لا أعرف عنها أبدًا... ثم أن علاقتي به مقطوعة حتى قبل أن أتخرج وأشتغل، فلا يهمني مع من له علاقة... هل هذا الأمر مهم بالنسبة للقضية؟ هل يؤثر به أم ماذا؟

تساءلتْ بحيرة وهي تقترب مني. وأنا لا أعرف بماذا أجيبها، وكيف أطرح الموضوع، ربما هو الشعور بالغيرة، لم تتطرق للأمر لأنها ما زالت تحبه! هكذا فسَّرتُ الأمر. قالت إنها أحبته لبعض الوقت، لكنها قالت أيضًا إنها صارت تكرهه لحد لا تطيق وجوده.

احتضنتُها بما يشبه الاعتذار:

- فقط أردتُ أن أعرف لماذا لم تذكري هذه المعلومة، وهي زميلتك وتنافسكِ كما قلتِ.

- صدِّقني لا أعرف، هذه أول مرة أسمع بذلك... ربما لهذا هي تتصرف معي بعداء وحقد أيضًا لم أكن أعرف سببه... ياه... الله يعلم ماذا كانت تقول للزملاء، لابد أنهم لهذا السبب كانوا يعاملونني بشيء من الجفاء.

لم ينقذني من ذلك الموقف غير نداء أمي للعشاء... هل هي الغيرة من كائن لم أره وهي لم تلتقِ به منذ سنوات؟ هل حقًا صرتُ أحبها لهذا الحد؟... لا بأس، ولكن الغيرة بهذا الشكل لا معنى لها... أم هو الغضب لأنها أخفتْ عني معلومة لا تقل أهمية عن موضوع زواجها وطلاقها؟... لكن لابد أن أحدِّث جبار، فقد يكون لرأي نجاح شيء من الحقيقة السيكولوجية. قد تكون سعاد أحد أسباب إحباط هدى وشعورها بالألم الذي جعلها تركِّز على القتيل وتحلِّل أقواله وأنانيته وحُبه للظهور وخبثه... الأمور التي يشترك فيها مع سعاد. وحتى عدم ثقته بها بتسليمها مهام مالية ربما له صلة بمعرفته أنها تشبهه بهذا الأمر... وسلوك سعاد العدائي مع هدى تراكم مع ما عرفته عن منصور جعلها أكثر تركيزًا على سلوكه وتصريحاته الخطيرة، فأرادت أن تقتل الشرَّ الذي يمثله هو أكثر من سعاد التي ما هي إلا غصن صغير بتلك الشجرة المتشعبة الأغصان السامة.

هل تزحزحتْ قناعتي بما قالته، لِمَ لمْ أطلب من نجاح البحث في أمر الوثائق؟ فهي أهم من تلك المعلومات.

- ما بك يا بُني؟ لِمَ لا تأكل؟

انتبهتُ لصوت أمي، فصِرتُ آكل بشكل آلي، فلم أسمع ما قالته بعدها. مدَّتْ يدها تلمس يدي وهي تهمس:

- لا تشغل بالك... لا شيء يستحق القلق.

اعتذرتُ منهما:

- لستُ جائعًا.

وأخذتُ سيجارة وخرجتُ للحديقة.

صوت إطلاقات وانفجارات وطائرات تحلِّق بعيدًا، لكن انفعالي جعلني أشعر وكأنها قريبة جدًا، وأنا في كابوسٍ ما، لا أتحرك، بل أرتشف السيجارة كما لو أن دخانها يزيح تلك الأصوات. بعد انقطاع طويل عُدتُ لها كمن يعود لحبيبة يعرف أنها متعبة لكن حبها يطوِّقه! سبَّب لي ذلك نوعًا من الإحباط وعدم القدرة على مواجهة الأمور بشكل طبيعي، كما قرَّرتُ وأنا أقنع أمي بضرورة مواجهة المشاكل برؤية سليمة وقلب نظيف! صوت ما يهدئ من روعي:

- لا بأس عليك، المهم أن تمتنع عنها لاحقًا، أن لا تستسلم لها.

لماذا أنا مضطرب منذ مجيء نجاح ليخبرني بما عرف من معلومات؟ هل أريد أن أحلِّل الموضوع نفسيًا لأتهم سعاد بما حصل، وهي فرصة لأنتقم لهدى منها؟ عن موقفها السلبي أم عن منافستها لها؟ أم عن علاقتها بمن كان زوجًا لهدى؟...

ما بك لا تفكِّر بشكل منطقي؟ كل أماكن العمل فيها منافسة، شريفة وغير شريفة... قالت إن زوجها وسيم ومولع بالعلاقات غير السوية مع النساء، فما ذنب سعاد إذن؟ ربما هي تشبهه فوافق شن طبقة... يجب

أن تفرح لأن لولا ذلك لما التقيتُ بهدى أو أحببتَها... أم انك محتار بين حبها وأمنيتكَ أن يكون كل ذلك حلمًا أو كابوسًا ستصحو منه.

كيف ستحتمل بُعدها عنك؟ كيف تمدك الحياة بكأس ماء وأنت يعذبك العطش لتكتشف أن الكأس ليس به سوى قطرات؟

لن أعيدها للمعتقل، سنبقى هنا حتى يعود جبار وعائلته، حتى لو تطلَّب ذلك أن لا أخرج من البيت... انفعلتُ لهذا القرار حتى تسارع نبضي بل وضاق تنفسي، لا أدري أن كان فرحًا بالقرار أم خوفًا...

ركضتُ للصالة أبشِّرها بالقرار، فلم أجدها، وأمي كانت نائمة على إحدى الأرائك، يبدو أني غِبتُ طويلاً في الحديقة فلم أشعر بالوقت... لابد أنها تنتظرني في غرفة النوم... انطلقتْ عصافير الشوق فجأة فهرعتُ للغرفة، لكني لم أجدها هناك، فبحثتُ في كل البيت... أين اختفت؟!

صارت العصافير تنقر دواخلي، وغاص قلبي خوفًا: «هل ذهبتْ لوحدها لتضع النهاية بنفسها دون تدخلي؟».

صرختُ بأعلى صوتي:

- هدى...

فزعتْ أمي خائفة. وسمعتُ صوتها من بعيد:

- نعم... أنا هنا بالأعلى.

- أوف.

تهالكتُ على كرسي في الصالة وأنا أعتذر لأمي عن إيقاظي لها... ثم

هرعتُ أطوي السلالم كل اثنين معًا.

عانقتُها طويلاً وأنا أضمها لصدري:

- الحمد لله.

... همستُ وأنا أقبِّل شعرها. أبعدتني ضاحكة:

- الناس يرقبون... ما بك؟ لست طبيعيًا أبدًا... هل خفتَ أن أكون هربتَ مثلاً؟... صعدتُ أستذكر نجومنا الشهود.

... قالت ذلك وضحكتْ بانفعال وقد احمَّر خداها.

- ليذهب العسس والمتطفلين إلى الجحيم... أريدكِ الآن، فقد قرَّرتُ أن نبقى هنا إلى أجل غير مسمى، ليفعلوا ما شاءوا، ليبحثوا عنا... ليكن كلانا هاربين من العدالة.

أشاحت بوجهها كأنها لا تريدني أن أرى الخوف على وجهها... أطلقت آهة طويلة وطال صمتها بعد ذلك.

استغليت صمتها ورحتُ أقبِّل وجهها وازحف على رقبتها الناعمة وقد خدَّرني عطرها... استسلمتْ لي، فشوقها لا يقلُّ عن شوقي... هل وافقتْ على القرار؟ أم أنها أجَّلتْ الحديث بالموضوع لما بعد؟

• • • •

المطر يتهاطل بشكلٍ لم نعرفه من قبل. ولكن لِمَ أنا حزين؟ فكم تمنيتُ أن ينزل المطر ويُغرق الشوارع ليأخذ معه الوحل والكراهية بعيدًا... ولكن شعور بالقهر والعجز جعلني حزينًا باكيًا حتى وأنا أتطلع صوب الباب... كانت هناك سعاد وشبح عرفت أنه ماهر، ربما من طريقة وقوفه معها، أو طريقتهما بالنظر لهدى التي كانت تعانقني وهي تبكي بصمت. بينما أنا لأول مرة أبكي بصوت مسموع ووحوش الغضب تكاد تمزِّق أحشائي... ما الذي أتى بهما؟ لِمَ يضحكان بهذا الشكل الغريب المتشفي؟ على ماذا؟ على زواجنا السريع، أم لأنهما لا يرانها تنافسهما؟!

العرق يتصبَّب مني وأشعر باختناق وكأن لا وجود للمطر... أبعدتُها عني... فصحوتُ على صرختها:

- آسفة... لابد أنك رأيتَ كابوسًا. مَنْ كُنتَ تضرب؟

عرفتُ أني ضربتُها بقوة... إذن ذلك المشهد كان كابوسًا... نسيتُ إذا كنتُ أريد أن أضرب أحدًا، أم أردتُ إبعادها لشعوري بالاختناق؟

نهضتُ لأفتح الشبابيك، لكنها أوقفتني...

- لا تفتح الشبابيك... ألا ترى الغبار المتهاطل؟

كان الجو مكفهرًا والغبار يغطي كل شيء حتى شعرها الذي صار رماديًا... فضحكتُ طويلاً وأنا أشير لشعرها، ثم أخذتنا نوبة من الضحك سبَّبتْ لنا اختناقًا من كثرة ما غزانا من غبار ناعم.

ركضتُ إلى الحمَّام، بللتُ منشفة وأعطيتها لها لتضعها على وجهها

منعًا للغبار، وأخذتُ واحدة لي وأنا أبحث عن أمي، رأيتها تلبس عباءتها وتريد الخروج:

- سأذهب لأشتري خبزًا وشيئًا للإفطار.

- فقط المجنون من يخرج بمثل هذا الجو... اجلسي واستريحي، لابد أن هناك بعض الخبز متبقي لنأكله.

... قلتُ لها وأنا آخذ منها العباءة.

كانت كأنها تنتظر أن أقول لها ذلك... دخلت المطبخ وهي تتمتم:

- لماذا يا رب هذا الغضب على عبادك؟ ألا يكفي ما نحن فيه... غفرانك يارب... أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

فتحتْ الشباك وهي تضع المنشفة التي أعطيتُها لها على وجهها، لم أعلِّق على فتح الشباك لأن الغبار كان يدخل بكل الأحوال.

خلعتُ قميصي لأستحم... وإذا بكل الحيطان تهتز وزجاج النافذة يتطاير أمامي. لم تفلح انحنائتي لتفاديه من جرح جبهتي... أسرعتُ وقد سمعتُ صرخات أمي وهدى... ركضت للمطبخ، كانت أمي تجلس على الأرض وقد غطَّتْ وجهها كله بالمنشفة، ومِنْ حولها تناثرت أدوات المطبخ، لكن لا وجود لزجاج النافذة. ربما فتح النافذة أنقذ أمي من الزجاج الذي ملأ كل ركن بالبيت... صرختُ على هدى وأنا أسرع لغرفة النوم... لماذا لم تخرج؟

ركضتْ أمي معي... صرختْ بحدة وانحنتْ عليها، وأنا أقف مذهولاً... كان الزجاج يغطي جسدها الذي ملأته الجروح، إحدى الشظايا اخترقتْ

عنقها الرقيق...

أبعدتُ أمي وصِرتُ أزيح الشظايا بسرعة وأنا أصرخ بها:

- اطلبي الإسعاف بسرعة.

ضغطتُ قطعتي قماش دون أن أميِّز ماهيته حول الشظية على العنق لمنع تدفق الدم، ثم ربطتُه بالمنشفة في محاولة يائسة لإيقاف النزيف...

- هدى... ستأتي الإسعاف الآن... لا ترحلي... أرجوكِ.

سمعتُ أمي تصرخ بهستيريا:

- ساعدونا يا أهل الرحم.

حين وصلت الإسعاف كانت هدى قد رحلتْ... لكني بقيتُ أحتفظ بجسدها أحتضنه لعلّي أعيد له الحياة...

تركوني لحظات حتى جاء الجيران وأناس لا نعرفهم، سحبوني خارجًا، لأدع رجال الإسعاف يقتربون منها وقد سمحتُ لهم بمعاينتها أو على الأقل لاتخاذ ما يلزم.

لم تتوقف أمي عن البكاء... جاء عباس وزوجته وجبار وأخته وبعض الأقرباء، وآخرون لا أعرفهم، بعض زملائها أيضًا؛ منهم سعاد، لم أتطلع لها، ولم أمدّ يدي لأصافحها... لا أعرف، شيء ما جعلني أرفض مصافحتها، ربما موقفها المعادي لهدى وكلامها عنها بكراهية واضحة، أو هو تذكري لصورة الكابوس حيث كانت تقف تتفرج علينا وتضحك... انتقدني البعض، لكني لم أصغ لهم، كنتُ غائبًا عن الوعي تقريبًا.

هناء عانقتني وراحت تبكي بحرقة... ثم انتزعتُ نفسي منهم وتركت الجميع وانزويتُ بالغرفة. جمعت حاجاتها القليلة وفرشت فستانها على السرير وعانقتُه وأنا أكتم صرخة تكاد تخترق عنقي كتلك الشظية التي قتلتْ هدى.

لا أعرف كم مضى من الوقت، لكني سمعت جبار يناديني بهدوء. وقد ساد السكون المكان ما عدا صوت أمي وهي تردِّد الدعاء ليصبِّرنا ويبعد عنا الأشرار.

أي نوع من الحقد هذا؟ يستغلون هذا الجو حيث الناس تضطر لإغلاق الشبابيك ليضربوا ضربتهم لإحداث ضرر أكبر!... أي كائنات هذه؟ يزحفون الآن لكل المناطق، ما عاد يسلم منهم أي حي أو مدينة.

• • • •

في الصباح أخرجتُ المسجلات وصِرتُ أسمع حوارها من جديد، وأراجع ما سجلتُه على الورق... كنتُ أترقب حضورها بعد قليل... انتظرتُها تأخذني من يدي ونجول في البيت الذي صرت لا أطيق البقاء فيه... ثم فتحتُ التلفزيون لأرى ما يقولونه عن ما حصل.

تجمد الدم بعروقي فجأة، لكني فركت عينيَّ، ربما هي الصدمة جعلتني أرى الأشياء بشكل مختلف...

ناديتُ على جبار الذي أتى مسرعًا تتبعه أمي...

- انظر لهذا... من هو؟... إنه منصور، أليس كذلك؟

تطلعتُ له بخوف من أن يقول إنه هو... وخوف أكبر من أن يقول لا!

إذن هو منصور... لم يمت... أم هو منصور آخر، وقد تكاثروا اليوم.

هرعتُ للمسجل والأوراق وخرجتُ دون أن التفت لأمي أو لجبار الذي أجَّل سفره من أجلي.

اتصلت بصديقي الصحفي ليلحق بي إلى المحكمة...

هناك طالبتُهم بفتح قضية هدى، وإن كانت هي قد رحلت؛ لكن القضية لم ترحل، ما زالت تنتظر المرافعة، وما يقوله الرأي العام بعد سماع ما قالته وما سأقوله عنها.

تمَّت

لندن

٢٠٠٩ -٢٠١٢

المؤلفة في سطور

- كاتبة وروائية عراقية من مواليد بغداد
- غادرت العراق عام ١٩٨٠م، ومقيمة حاليًا في لندن
- حازت على الليسانس من قسم الآداب - جامعة بغداد
- ترأست تحرير مجلة (السيدة العراقية) الإلكترونية التي أسسها المرحوم عصام البغدادي، ٢٠٠٥
- عملت معدة برامج إذاعية في إذاعة الناس - بغداد
- ساهمت في تحرير مجلة الحل – بغداد
- عملت مراسلة لصحيفة الصباح الجديد وكان لها عمود بعنوان (على رصيف الوطن)
- أسَّست مجموعة أصدقاء الشجرة في العراق
- ساهمت بتأسيس مجموعة نساء ضد الحرب في لندن
- نشرت العديد من القصص القصيرة والمقالات السياسية والنقد الروائي في الصحف العربية والمواقع الإلكترونية
- صدر لها:

- صمت الشوارع وضجيج الذكريات : رواية. أدب فن، هولندا، ٢٠٠٧
- ليالي المعري : رواية. دار ومكتبة أوراق، بغداد، ٢٠٢٢
- حصى الشاطئ : رواية. شمس للنشر والإعلام، القاهرة، ٢٠٢٢م
- أوراق منسية : مجموعة قصصية (قيد النشر)
- متاهة الأحلام : رواية (قيد النشر)

- البريد الإلكتروني: **ib.samyosef@gmail.com**

شمس للنشر والإعلام

ت فاكس: ٠١٢٨٨٨٩٠٠٦٥ (٠٢)

www.shams-group.net